عبد المتعال محمد الجبري

مقتل العرب في صراعاتهم
منذ فجر التاريخ

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية، عابدين
تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤٠٩ هـ — ١٩٨٩ م

دار التوفيق النموذجية
للطباعة والجمع الآلي
الأزهر ٢٣ ش الشيخ صالح الجعفري
ت ٩٢٥٣٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

الحمد لله على كل حال . نشهد أن لا اله الا هو اليه المرجع والمـآل ، ونشهد أن محمدا عبده ورسـوله ، صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى صحبه والسالكين طريقهم الى يوم الدين .. وبعد .

فهذه صفحات هادفة من بطون التاريخ العربى القديم والوسيط ، أقدمها لكل ذى قلب سليم ، وأنا يعتصرنى من واقعنا المرير ما يجعلنى أقول : ما أشبه الليلة بالبارحة ، وأقول : هل يصيخ الأحفاد السمع الى المثل الذى ضربه لهم الأجداد حين قالوا : « أكلت يوم أكل الثور الأبيض » ؟ ،

« وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها الا العالمون »(١).

وأقدمها لكل من أراد من السـاسة أن يعى درس التاريخ كما يعى أولئك المستشرقون والمستعمرون تاريخ البلاد المحتلة قبـل أن يحتلوها ، ويعكفوا على تحليله ، ليعرفوا من أين تؤكل الكتف فى المستعمرات ..

---

(١) العنكبوت : ٤٣

وأظنني قد وضعت النقاط على الحروف فيما عرضته في هذه الدراسة حتى تكون العبرة جلية :
« لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب »(٢) ، «فاقصص القصص لعلهم يتفكرون »(٣) .

اللهم علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ؟

د. عبد المتعال الجبرى

* * *

(٢) يوسف : ١١١ (٣) الاعراف : ١٧٦

الفصل الأول

فى العصر الفرعونى

- الفرقة والنكسة منذ الفراعنة .
- مصر بين عوامل القوة والضعف .
- عودة الى الدناءة .
- ثم عاد الانقسام ونظام الولايات .
- عود الى الوحدة .


www.dar-alkotob.com دار الكتب

الفرقة والنكسة منذ الفراعنة

● مصر بين عوامل القوة والضعف :

كانت مصر قوية بالخيرات التى تثمرها مصر حين كان الجميع يعملون متحابين يحترم الصغير الكبير ، ويحرص الكبير على رعاية الصغير . فلما دب الخلاف بين الرعايا والأمراء ، وبين الأمراء وفرعون نتيجة لغة : « **أنا ربكم الأعلى** » كانت النتيجة : « **فأخذه الله** » .

ومع ضعف فرعون مصر أراد أن يستر خيبته ، وأعلن — فى غير صدق نية ، ولا اخلاص طوية ، و لاتجهيز جيوش قوية : أنه سيمد سلطانه فى الشمال على مملكة الهكسوس فى سيناء ، فاستغل الهكسوس الفرصة .. الضعف والتمزق الداخلى من جانب ، والجعجعة الكاذبة ذات الصفة الرسمية من جانب آخر ، وزحفت جيوش الهكسوس — يعنى أمراء الصحراء — صوب مصر ، وكان ذلك سنة ٢٣٣٣ ق . م فى عهد الملك يوسرتسن الثالث .

« **وقد كان هؤلاء الأمراء من عرب شبه جزيرة سيناء الأقوياء البارعين بالحرب فاستولوا على أرض مصر**

وأخضعوها لنفوذهم • وأقاموا بمنفيس وتسلطوا على كل البلاد المصرية » وكونوا الأسرة الرابعة عشرة والخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة فى أسر التاريخ المصرى القديم العريق • وظلوا بمصر زهاء خمسة قرون •

فلما اتحدت الكلمة على يد أحمس ملك طيبة استطاع أن يطرد أولئك المحتلين حوالى سنة ١٧٠٠ ق•م

● **عود الى الدناءة :**

مع أسلوب المكر والدهاء الذى قد يسميه البعض سياسة ، استطاع الكاهن « صرصور » أن يختلس الملك من الأسرة العشرين • ويقيم الأسرة الـ ٢١ ، التى اتخذت تنيس عاصمة لها •

ولكن الله يمهل ولا يهمل • وطبقا للقانون المشهور القائل :

وما من يد الا يد الله فوقها
ولا ظالم الا سيبلى بأظلم

وطبقا لقانون القوة فى الحيوان البشرى الخالى من

القيم السماوية الرحيمة العادلة ، فان دولة كبرى تتدخل لتخلص من حكم أسرة « صرصور » ــ حقوق الأسرة الطريدة أسرة « رعمسيس » ، وتستولى تلك الدولة القوية على مصر ، وتطرد الظالم عن مصر وتحل مكان الاثنين • فلا رعمسيس ولا صرصور • ولكن الحكم للملك آشور وابنه الذى تربع على عرشها المسمى « شيشق » أو « شنشق بن نمرود » • ودامت هذه الأسرة من سنة ٩٨٠ ق • م الى سنة ٨١٠ ق • م حيث تغلب عليها الأمير بتوباستيس وأسس الأسرة الـ ٢٣

● ثم عاد الانقسام ونظام الولايات :

انقسمت ديار مصر الى عشرين اقليما ، وطرحت فكرة اللامركزية ترضية لرؤساء المدن •• فضعفت الدولة • واستطاع أقواهم أن يقهرهم ، ويستولى على مصر كلها •

وخلفه ابنه « باكوريس » وكان ملكا حازما عالما فاضلا أراد النهوض بالبلاد •• ولكن ماذا ينفع الكفء العالم الفاضل بعد أن أصبح السوق خربا وتهشم الزجاج ؟

لقد استغل الأحباش فرصة ضعف الدولة فأغارت على البلاد .. ولم تجد فى المواجهة أحدا ، فتبوأت السلطة وكونت الأسرة الخامسة والعشرين سنة٧١٥ق٠م٠ واتخذ « سباقون » كبار رجال المدن مستشارين له ليرضيهم ، لا ليكونوا مشاركين حقيقيين فى لعبة الحكم .. وهل يكون حكم المحتل لمصلحة البلاد ، وهل كانت الحاشية حول الغاصب الا كالطابية والفرس والفيل والكلاب حول الملك على رقعة الشطرنج ؟

ورضيت زعامات مصر بأن يحكمها زنوج الحبشة .. وهم من حوله يقتاتون .. واستصرخت بلاد الشام « سباقون » أن يغيثها من طغيان آشور ٠

وطبقا للقاعدة السياسية التى يصورها المثل المصرى « اللى يفنجر يفنجر من جيب غيره » ، يعنى اذا أحببت أن تظهر الكرم وتؤدى الواجب فافعله من جيوب الآخرين ٠

ومن ثم استجاب الملك الحبشى وتقرر أن ينقذ بالجيش المصرى أولئك الفينيقيين والفلسطينيين العرب من اخوانهم وجيرانهم فى الشمال الشرقى وهم عرب أيضا ٠

وأقرب لحمة .. وطبعـا جيش بلا قلب يحارب فى قضـية لا ناقة له فيها ولا جمل .. لا بد أن ينهزم ويولى الدبر . وهـذا هو ما كان بالفعل .. سـار الجيش .. وما أن اصطدم بالآشوريين حتى تراجع .. ومات « سباقون » .. وخلفه أبناؤه حتى سـنة ٦٥٥ ق.م .

● **عودة الى الوحدة :**

اذا الشـعب يوما أراد الحيـاة
فلا بـد للقيـد أن ينكسر

لقد بعدت رائحـة الهزائم فيما لا ناقة لمصر فيها ولا جمل ــ عن الأنوف بحكم النسيان والبعد عن الواقع التاريخى بأكمله .. فلم تبق الا صورة المهانة والسيطرة العسكرية الحاكمة من سـلالة بغاة الحبشة ... وبقليل أو كثير من التحريك الجماهيرى استطاع الزعيم المصرى «باسماتيك الأول» أن يكون فى سنة ٦٦٥ ق.م أسرة قوية عرفت بالأسرة الصاوية ، والبلاد تئن من سياسـة العنف والارهاب والفوضى ، لمـا قاسـته من حروب طويلة فى الشـمال والجنوب . معها خراب خزانة الدولة وجيوب

الأفراد ــ واهمال الزراعــة والانتــاج ــ وكانت فرحــة الشعب بعودة الحكم لأبناء الشعب •

وبنى الحاكم المصرى الجديد خطته على ما يلى :

١ ــ الاستجابة لمطالب الشعب الدينيــة ، فجــدد المعابد والمعاهــد التعليميــة وكان التعليم فى مصر تحت اشراف الكهنة دائما •

٢ ــ تقــوية الجيش والحصــون وتأهيلهما لكسب النصر عند أية هجمة غادرة •

٣ ــ التحبب الى الناس فى الداخل بتقوية الوحــدة وفى الخارج بحسن الجوار •

٤ ــ الاهتمام بالعلوم والفنون وجعل مصر قبــلة لكل طلاب العلم مهما تنوعت جنسياتهم • حتى وفد اليها الطلاب من كل الجنسيات • فدان بفضل علومها أفلوطين وفيثاغورس وصولون وغيرهم •

فلما خلفه « نخاو » وســع رقعة البلاد فى غير عنف برعية ولا جور على أحــد •

هــذه قصـــة النكســـة بمرارتها ... والوحـــدة بحلاوتها وعزها .. قصة الفرقة التى تورد الشعوب موارد الهلكة ، وقصة الوحدة كطريق للخلاص وهى وحدة يباركها الله لمن يعتصمون بحبله . قصة لخص حقيقتها القرآن فى بعض آية : « **وكنتم على شفا حفرة من النارفانقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون** »(1) .

* * *

(1) آل عمران : ١٠٣

الفصل الثانى

فى جزيرة العرب

- مملكة سبأ وذى ريدان ــ وفرق تسد .
- الصراع على قتبان ــ الانتصارات الخارجية ليست مكسبا شعبيا .
- موقف سلبى موحد .
- ما ثمرات التدخل الأجنبى .
- خراب سد مارب والأسباب الحقيقية علميا .
- الأوس والخزرج .

● **مملكة ســبأ وذو ريدان :**

امتد سلطان ســبأ على البلاد المجاورة فأصبح لقب ملك ســبأ هو « ملك ســبأ وذو ريدان » عنــدما ضم الى ســبأ أراضى ذو ريدان حوالى ســنة ١١٥ ق . م . أو حوالى سنة ١١٨ ق.م . أو حوالى سنة ١٠٩ ق.م . على خلاف بين المؤرخين .

ثم أصــبح اللقب « ملك ســـبأ ، وذى ريدان ، وحضرموت ، ويمنت » عندما اتســع ملك ســبأ فضم اليه أراضى الحضارمة واليمن الجنوبى .

وفجأة اندلعت الحرب بين زعماء هذه الدويلات رغبة فى الانفصال والاستقلال فاضطرب حبل الأمن ، وتوالت الحروب. وكان المنتصر فيها كالخاسر ، فهو ينتصر فى حرب ، ثم يخسر فى حرب أخرى ، وذلك لأن كفاءات مؤججى تلك الحروب كانت فى مستوى واحــد . ولهذا كان الخاسر فيهــا لا يلبث أن يعــود بسرعة فيقف على رجليــه ،

يحمل سـيفه ليحارب من جـديد حتى كادت الحروب تصير هواية ، أو لعبة مألوفة .

أما الخاسر الوحيد فهو الشعب . أى الناس المساكين التابعين لحكامهم . الذين يكونون السواد ، لكنه سواد لا رأى له فى حكم ما ، ولا كلمة . يساق من حرب الى حرب ، فيسمع ويضيع ، لعدم وجود قوة له تمكنه من الامتناع .

والمتشاجرون البارزون فى تلك المعارك والحروب : هم سـادات كل من حمـير ، وريدان ، وحضرمـوت ، وقتبان ، وأقيال وأذواء[1] وأصحاب أطماع وطموح . أرادوا اقتنـاص الفرص لتوسـيع نفوذهم ، واصـطياد الحكم ، وانتزاعه من الجالسين على عرشه .

وهذا الوضـع أضعف العربية الجنوبيـة (مملكة سـبأ وذى ريدان باليمن) وأطمع الحبش (الأثيوبيين) فيها ، فدخلوا طرفا ثالثا فى النزاع بين الأشقاء العرب ، فمرة ينصرون طائفة منهم ويعينونهم حتى يحطموا الطرف

---

(١) أقيال : جمع قيل ، واذواء : جمع ذو . يعنى رئيس مجموعة عشائر .

الآخر ، ومرة — لأتفه الأسباب — ينقلبون على الفريق الذى ناصروه ، ويتحولون الى الطرف الآخر ، لينقذوه من ورطته التى كانوا هم السبب فيها — ليقضـوا على الطرف الأول بعد أن ظن أن به قوة ، وهكذا يجد نفسه أمام قوتين : بنى عمومتـه من العرب ، وخصـومه من الحبش ، مع فقده كثيرا من أسـباب القوة ، بانسحاب الحبش الذى كانوا معه ، وبتخريب اقتصاد البـلاد فى الحرب المزمنة • وبتوتر الرعية لمـا فقدته من أولادها فى الحرب •

وهكذا يظل العدو يلعب مع كل فريق حتى يتهشم الجميـع • ويضعف الفرقـاء وتتم تصـفيتهم بدنيـا ، واقتصاديا ، واجتماعيا ، ويصفو له الجو فيبتلع الجميع •

وكما يقول المثل :

وما مصر كالسودان لقمة جائع

ولكنهـا مرهـونة لأمان

وهكذا رأينـا يوما أو أيامـا سـوداء فى تاريخ العرب • ملك فيه الأحباش سـاحل الحجاز من ينبع الى

عسير الى الساحل المسيطر على مضيق باب المندب .
وبذلك أصبح البحر الأحمر بحيرة لمملكة الحبشة
وأكسوم ، شاطئاها بلاد الحبشة فى افريقيا وطول
الساحل العربى وبلدانه من ينبع شمالا الى باب المندب
جنوبا . وقد كان ملكهم اذ ذاك هو الملك « جدرت »
أو جدرة »[٢] .

● **فرق تسد :**

كان « علهان نهفان » ملك سبأ ، فى حدود سنة ١٣٥ ق.م. فى الراجح من أقوال المؤرخين .

وبينما الناس فى هدوء بعد حروب وغارات ، قام « شابت بن عليان » بتكوين جبهة واحدة قوية لمحاربة علهان الهمدانى .

وكانت هذه الجبهة مكونة من «عمى أنس بن سنحان» ومن قبيلة خولان . ومن الريدانيين . ودارت رحى الحرب على خصوم «علهان» الهمدانى الذى لجأ الى ربه يستعينه ويستنصره على أعدائه . فنصره عليهم[٣] . اذ أن الله

---

(٢) جواد على : المفصل جـ ٢ ص ٣٦٨
(٣) المفصل جـ ٢ ص ٣٦٩

يستجيب دعــاء المضطر اذا صــدق التوجــه الى الله :
« أم من يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض »(٤) ، « بل اياه تدعون فيكشف ما تدعون اليه ان شاء »(٥) ، « وقال ربكم ادعونى استجب لكم »(٦)، « واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه »(٧).

وهكذا جاء من بعد علهان ابنه « شعرم أوتر » فقاد الهمدانيين الى خصومه الحضارمة وأهالى ردمان فانتصر عليهم •• وقابل قائد جيوشــه « ســعد أحرس » ذلك بالشـــكر لربه أن نصره وعافاه وشــفاه من جروحــه فى غزاوته[٨] .

● الصراع على تركة قتبان(٩) :

نزغ الصراع بين « شعرم[١٠] أوتر » الهمدانى وبين

---

(٤) النمل : ٦٢ — (٥) الانعام : ٤١
(٦) غافر : ٦٠ — (٧) الاسراء : ٦٧
(٨) المفصل : جـ ٢ ص ٣٧٢
(٩) المفصل : جـ ٢ ص ٣٧٢
(١٠) شعرم : قد تنطق بدون الميم . لأن الميم ليست من بنية الكلمة .

« الشرح يحضب » الحضرمى من أجـل السـيطرة على ممتلكات دويلة قتبان ، وانقسمت حمير فأصبح لكل فريق منهما أنصار •

وكون « شـعر أوتر » جيشـا مؤلفا من سبئيين ، وحميريين وقبائل أخرى ، ووجههم الى حضرموت للقضاء على جيشـها والاسـتيلاء عليها ، ولا سـيما القسـم الشرقى ، اقليم ظفار • الذى ظل حتى الآن مطمح أنظار جاريه من الجانبين ــ وفى موضع ذات غيل فى وادى بيحان من أرض قتبـان دارت رحى الحـرب على رؤوس المتصارعين ، وان كان « شعر أوتر » قد فاز بالانتصار على الحضارمة فى موقعين آخرين « شبوت » و « صوران » • ورغم مقاومة شبوت (شبوة) فقد ظفر ببعض الأسلاب والغنائم ، كما سيطر جيش « شعر أوتر » على ميناء قنـا بقوة حاصرته من البحر •

لقـد رجعـوا بغنـائم مادية •• وخسروا الأرواح البشرية ، وخسروا الأخـوة العربيـة • وانتهز الفرصـة أولئك الأحباش المتربصون بهم فأغاروا على « شعر أوتر » وعلى أرضـين أخرى كانت تابعـة له فى أثناء انشـغال

جيشــه بالهجــوم على « الرومانيين » ، لقــد هــاجم الأحباش مؤخرة الجيش العربى الذى جهزه « شعر أوتر »، وربما كان ذلك باتفاق مع بنى ردمان .. فان الأخوة حين تخدش بالحقد والأنانيــة تبعث على الخيــانة العظمى ، وتجعل الأخ يمد يده لأعدائه وأعداء أخيــه حتى ينتصر على أخيه ، وما درى المثل العربى القديم : « أكلت يوم أكل الثور الأبيض » .

ولجأ « شــعر أوتر » مرة أخرى الى ربه يدعــوه ويقرب اليه القرابين حتى يثأر له من الأحباش .. فجهز جيشــا استطاع مطاردة جيش الأحبــاش فانتزع منهم « فتروعد » وهو جزء من ظفار ، وكان على رأس جيش « شعر أوتر » القائد المحنك « قطبان أوكان » .

وساعده على مطارده الغاصب المحتل التفاف العرب حول « قطبان » ، ورغبتهم فى طرد المحتل . فانضم الى حركة التحرير هــذه قوم من « ذمار » ، وجمــاعة من الفرسان وعشــائر من « بنى ذى ريدان » اذ باغتــوا جيش الاحتلال ليلا وقتلوا منهم أربعمائة جندى .

وفى اليوم التــالى تعقب « قطبــان أوكان » فلول

جيش الحبشة فى أرض المعافر • فلما أدركهم قتل قوما منهم • فاتجه الباقون هاربين الى معسكراتهم •

وفى اليـوم التـالى ولى الأحبـاش الدبر فتركوا معسكراتهم وحصونهم فى ظفار ، واتجهوا الى المعـاهر (معهرتن) •

وهكذا لاحقت الجيوش العربية المتحدة الأحبـاش فى « معهرتن » ، ثم رسمت خطة لطردهم الى البحر ثم ملاحقتهم بأراضيهم فى الحبشة نفسها ، عبر ميناء الحديدة •

وهناك أسر عددا منهم وغنم غنائم كثيرة ورجع بها مسرعا تاركا الحبشة « أكسوم » فى حيص بيص •

وهـذا الأسلوب الحربى القديم هو ما يسمى فى العصر الحـديث « الضرب فى العمـق » • أو الضربة الخاطفـة التى تحقق خسـارة العدو ، وازعاج الرعيـة لتثور على حكامها •

وعاد مسرعا ليشترك فى بقية المعارك ضـد الحبش الذين كانوا تحت امرة « بيجت » ولد النجاشى ، الذى امتد سلطانه الى نجران •

● **الانتصارات الخارجية ليست مكسبا شعبيا :**

لقد تكون جيش للخدمات والرعاية الاجتماعيـــة ، لانشـــغال الجيوش المقاتلة وقادتها عن مصالح الرعية .. ولكن الحرب حين تستنزف طاقات الشـــعوب تولد الثورة على الحكام حتى لو كانوا فى مواقف منتصرة .

ولذلك رأينا القبـــائل تشـــور ضـــد ســـيدها الملك « شعر أوتر » فى الجنـــوب ، وفى الشـــمال . فى البحر وفى البر . مما اضطره الى تكليف «أبى كرب أحرس» أحد قادته ليخوض حربا داخليـــة ضـــد المنتشقين من « بنى يونم » أو « يوان » . ومن أهـــل قريتم . فحاربهم . وغنم من « قريتم » العربية غنائم كثيرة ، ويبدو أن « بنى يونم » كانوا مجمـــوعة من اليونان اســـتوطنوا الجزيرة لأعمال الملاحة والتجارة .. وبين الأجنبى والأجنبى لحمة وقربى ، اذ تربط بينهما أحاسيس الغربة .

وفى الوقت نفســـه قامت ثورات فى حضرموت ضد ملكها بعد الحرب ، جعلت « شعر أوتر » يمد يد المساعدة لملك حضرموت ضـــد شـــعبه .. وكأن الملوك قديما كانوا

عصابات لصوص ، وأصحاب منافع ضـد الشعوب .. اذا ثارت ضـد ملك نهض جاره من الملوك لنصرته .. فجميعهم مصـاب بداء حب الكرسى والسـلطة .. كما رأينا فى السودان حين شكا «النميرى» أسرع «السادات» بجيش يحميه هناك •

وهكذا رأينا الشعب يفرز جيشـا يكون خصـما للمتنازعين « شعر أوتر » و « الشرح يحضب » • وازداد بذلك الصراع الداخلى مما أدى الى أوخم العـواقب ، فهدمت مـدن ، وخربت قرى ، وتحولت مزارع كانت خضراء يانعة الى صحارى مجدبة عبوسة •

وتأثر اقتصاد البلاد باسـتمرار الحروب ، وبهروب الناس من مواطنهم ومن مراكز عملهم الى مواطن بعيدة ، فتوقفت الأعمـال ، وسـادت الفتن والفوضى • فقل الانتاج • وغلت الأسـعار ، وخيم الرعب على الجميـع اذ خشى كل فريق الآخر ، ولم يطمئن أحـد من الأتباع على نفسـه •

وهكذا تفتتت الوحـدة ، وانهدمت بنية المجتمع ، فلا أحـد يبكى الوطـن ، أو يلتفت مـع الحـاكم الى

المصلحة العامة . أو يؤازره ، وخاف الحكام من وجود السـلاح فى أيدى الرعية خشية أن تنقض عليهم .

ولهذا صارت « العربية السعيدة » لعبــة فى أيدى الحبش حينا ، والرومان حينا . حتى قال أحد المؤرخين اليونان :

« ان الرومان لم يقـاتلوا العرب ، ولم يصطدموا بقواتهم اصطداما فعليا على نحو اصـطدام الجيــوش ، وان المحاربين العرب لم يكونوا يملكون أسلحة حربية من الأسلحة المعروفة التى تستعملها الجيوش ، وأن كل ما كان عندهم هو الفئــوس والحجــارة والعصى والســيوف . ولذلك لم يتجاسروا على الالتحام بالرومان » ... تماما كما فعل المصريون عام ١٩٥٦ فى صــد العدوان الثـلاثى على مصر ، الذى شــنه الانجليز والفرنســيون واليهود الصــهاينة فى فلســطين . ولولا ظروف قاهرة ما خرج المحتلون .

ففى هجــوم الروم على بلاد العرب فى اتجــاههم لاحتلال العربية السعيدة : لاقى الرومان من الحر والجوع

والعطش ، ما جعلهم يقررون التراجع والعودة الى بلادهم، فهلك أكثرهم من العوامل المذكورة •

ويؤيد هذا توغل الحبش فى العربية الجنوبية وتدخلها فى أمورها الداخلية ، مع أنها دون الرومان فى القــوة والتنظيم الحربى بكثير •

وتوغلهم هذا يدل على أن العربية الجنوبية كانت الحروب الأهلية فيها قد دمرتها فلم تكن تملك اذ ذاك قوة بحرية قويــة ، بحيث تقف أمــام الحبش ، وتمنعهم من الوصول الى السواحل العربية ، مع أن الحبش أنفسهم ، لم يكونوا يملكون قوة بحرية يعتد بها ، ومع أن أجداد عرب الجنوب كانوا أرباب الملاحــة فى العــالم القــديم والوسيط وأساطينها •• ومنهم من وصلوا الى أوروبــا وأمريكا قبل اكتشافها بمئات أو ألوف السنين •• ولكن الذين تمزقهــم الخــلافات الحكومية ، أو المذهبيــة ، لا تنهض بهم أغانى المجد بالآباء والأنساب •

لا تقل أصــلى وفصلى انمــا
أصــل الفتى ما قــد حصل

لقد كانت الأسلحة فى يد حكام اليمن السعيد ، فلما بوغتوا بالحبشة ، لم يكن وقت لتوزيع السلاح ، واختيار المخلصين ، والتدريب على استعماله .. وهكذا قل فى عصرنا الحاضر عندما تكون مفاتيح وقود الطيران والذخيرة، وما الى ذلك فى خزائن الرئيس أو الملك أو الأمير أو ما شئت من الألقاب . ثم تكون المباغتة : « **فلا يستطيعون توصية ولا الى أهلهم يرجعون** »(١١) ، تقع الغارات ، وتتم الانتصارات للعدو ، ويكون اعتزاز المنهزم بكلمة : اننى وحدى صاحب الشرف ، اذ لم أكن أنا الذى أطلقت الرصاصة الأولى .ويقول المنتصر كـ «موسى ديان » : « ان جيوشنا تقدمت بحيث لم يكن أمامها أى عائق من العوائق ولو شئنا دخول القاهرة لما كان هناك مانع .. ولكن لم نشأ ذلك لأننا لا نحب أن نشغل أنفسنا باطعام ملايين الجائعين » .

وهذا كان نفس القول عندما سقطت الجولان ، فانما سقطت لعدم وجود مقاومة ، فقائد المقاومة وضع فى جيبه مفاتيح القوة المقاومة .. وأدار ظهره لمن اقتفوا قفاه،

(١١) يس : ٥٠

وارتقوا صعدا الى تلال **الجولان** .. وتمزقت ســوريا بالصراعات الداخلية فتدمرت كبريات المدن ، وبالصراعات الخارجية . فأصبحت فى الميدان وحدها تلطم يمينا لتدير — أو يستدير بالرغم منها — الوجه اليسار . وهكذا قل فى الخلافات التى جعلت كل بلد عربى واسلامى يحيا اليوم فى مهب الرياح .

● **كما قال تشرشل :**

ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا الذى كسب لها الحرب العالمية الثانية ولمن اشترك معــه يناصره من الدول التى سميت « الحلفاء » ضد دول « المحور » وهى ألمــانيا وايطاليا واليابان .

ومن أجل أن يكسب النصر أعلن أنــه سيحالف روسيا الشيوعية لتكون معه ضد المحور ، وبخاصة أنه كان بينها وبين اليابان خصومة قديمة . وسئل يومئذ : كيف تفعل هذا مع روسيا ، والخلاف المذهبى بينكما كما تعرف ، مذهب الرأسمالية الديمقراطية ، ومذهب الشيوعية وحكم الفرد ؟ فقال : « سأمد يدى الى الشيطان حتى أكسب النصر اليوم ، وليكن بعد النصر ما يكون » .

وهناك فارق بين نصر يحرزه زعيم من أجل شعبه ، ونصر يحرص عليه شخص نفعي من أجل كرسيه ومصلحته الخاصة • بين شخص يظفر بالنصر لأمته في معركة حقيقية عالمية ، ويريد القصر الملكي أن يكرمه بمنحه لقب اللورد . وأن يكون في مجلس الأعيان فيقول : شكرا •• حسبي أن أكون « مستر تشرشل » لقب كل مواطن • فهذا أعظم الفخر ، وشخص تقام ضده ثورات الشـعوب من كل الفئـات تناديه أن يتنحى • فقد ساءت أحوال العبـاد والبلاد • فيزداد تشبثا بكرسيه ويتخذ لذلك كل الأسباب التي لا يقبلها ضمير الحر ، ولا شريف الأصـل ، كريم المحتد ، ومن أجل الاستقرار في الحكم يمد يده لأعداء البلاد حتى يحموه ، ويكون لهم كلب الحراسـة لقطيع الغنم •

● **الاحباش وعشائر سهرة :**

استوطن أهل سـهرة وادي سـهام ، وتحرشـوا بالسبئيين ، وقاتلوا جيوش « الشرح يحضب » • أي جيوش مملكة « سبأ وذي ريدان » • فقرر الملك الانتقام منهم ، والأخذ بثأره ، فاتجه نحو الشمال حيث تقابل مع

الحبش فى « وادى سردد » على مســافة ٤٠ كيلوا مترا شمال مدينة الحــديدة ، فوقعت معارك بينه وبينهم فى سهل « ودفين » ، وفى أرض « لقــاح » • وقد تقــابل السبئيون الأحرار بعد معركة لقاح بجماعات عددها خمس وعشرون جماعة من « أكسوم » أعنى من الحبشــة • وجمدان ، وعك ، وسهرة حلفاء الأحباش ، فشتت شملهم طبقا لخطة كان رسمها لهم وهو فى صنعاء ، ثم عاد الى صنعاء مكللا بتاج النصر •

ثم اتجه بجيشــه الى أرض عشائر « سهرة » حيث كانت بها عصابات منتشرة فى كل مكان • فلما أحست بمقدمه هربت الى البحر ، فأسرع اليهــا حتى أدركهــا وحاربهــا •

ثم التف حول الحبش وحلفائهم من عك وســهرة الذين كانوا قــد عسكروا بعيدا عن مواضــع أطفالهم وأموالهم • فأعمل فيهم السيف فقتل منهم عددا كبير ، وذبح الحبش ذبحــا حتى صاروا بين قتيل أو أســير ، وظفر جيش « الشرح يحضب » بغنائم كثيرة من هؤلاء•

ثم اتجه جيش « الشرح يحضب » بعد هذه المعارك

نحو الشرق ، لمنازلة فلول الأحباش وبقيتهم ، وكذلك علك وبقية حلفائهم ، فبلغ موضع « عينم »[١٢] ، وموضع هعن[١٣] ، حيث منازل قبائل بكيمل . واصطدم بهم ، فأعمل فيهم السيف حتى تغلب عليهم ، وأخذ منهم عددا كبيرا من الأسرى ، واستولى على غنائم كبيرة عاد بها ، حيث وضعت أمام شقيق « الشرح يخضب » أي « يأزل بين » في صنعاء ، وفي قصر سلحين ، أي قصر الملك في « مأرب » .

هكذا من أجل المصالح الشخصية تعاون أهل سهرة وآخرون مع الأحباش ، ويأبى الله الا أن يخذل الخونة على أيدي من فيهم بقية من دين وضمير وطني ، حتى ولو كانوا غير مسلمين ، لأن الله مع الحق دائما وأبدا .. هكذا فعل مع الحبشة عندما اعتدوا على الجنوب والساحل ، وهكذا

---

(١٢) موضع عين — على مسافة اربعين كيلو مترا من شمال شرقي صنعاء ، وزهاء عشرة كيلو مترات من جنوب غربي عمران .

(١٣) هعن : يسمى «هواع» يقع عى مسافة ٣٥ كم من شمال غرب عمران .

انتقم منهم بعدله عندما اتجهوا الى مكة وحرمها الشريف

« الم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيــل . الم يجعــل كيدهم فى تضليل . وارســـل عليهم طيرا ابابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف ماكول »(١٤) .

روى أن أبرهــة الأشرم ملك اليمن بنى كنيســة بصنعاء ، وأراد أن يصرف اليها الحجيج . فجاء رجل من كنانة وتغوط فيها ليــلا ولطخ جدرانها بالنجاسة احتقارا لهــا . فغضب أبرهة وحلف أن يهدم الكعبة . وجــاء مكة بجيش كبير يتقدمهم فيل من الأفيال التى معه .

وكلما طلب دليلا من القبائل التى مر بها رفضــوا مساعدته بذلك الا رجــلا يكنى « أبا رغال » ، وقع تحت اغراء أبرهة . ومضى يدلهم على الطريق . فأماته الله قبل أن يبلغوا مكة .. وظل العرب يرجمون قبره تعبيرا عن

---

(١٤) سورة الفيل ــ وابابيل : جماعات جماعات : بعضها فى اثر بعض . وهو جمع لا واحد له ، وسجيل : طين متحجر . والعصف : ورق الزرع بعض الحصاد : كالتبن وقشر الحنطة ، سمى عصفا لان الريح تعصف به فتفرقه ذات اليمين وذات الشمال .

سخطهم على من يسلم نفسه لخدمة أعداء البلاد وأعـداء الدين .

واستطاع أبرهة أن يمضى فى طريقه الى مكة دون أن يعتبر بما رآه من موت أبى رغال قبل قبل أن يبلغ الكعبة .

وسـمع أهل مكة بخبر أبرهة وجيشه والفيلة التى معه ، ولم يكن لهم عهد بحرب الفيلة فنصحهم كبير البلاد عبد المطلب جد الرسول محمد عليه الصلاة والسلام أن يخلوا بيوتهم من كل شىء يمكن أن يفيد الأعداء ، ويعتصموا بالجبال . أما هو فقد أمسك بحلقات الكعبة داعيا الله أن يحمى بيته من شر أعدائه ويقول :

لاهـم ان العبـد يمـ ـنع رحله فامنع حلالك (١٥)

لا يغـلبن صـليبهم ومحالهم عـدوا محالك (١٦)

---

(١٥) الحلال : بكسر الحاء ــ القوم المقيمون المتجاورون: يريد سكان الحرم .

(١٦) عدوا : اعتداء . ومحال : بكسر الميم : القوة .

ان يدخلوا البـــلد الحرا
م فأمر ما ٠٠ بدا لك[17]

ويروى أيضا أنه كان يقول وهو آخذ بحلقـــة باب الكعبة :

يارب لا أرجو لهم سواكا
يارب فامنـــع منهم حماكا
ان عدو البيت من عاداكا
انهـــم لن يقهـــروا قواكا

قال ابن اسحاق :

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة ، وانطلق هو ومن معه من قريش الى شعف الجبال فتحرزوا فيهـــا ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة اذا دخلها ٠

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة ، وهيأ فيله ، وعبأ جيشه ، وأجمع أبرهة أمره لهدم البيت ثم الانصراف الى اليمن ٠ فأرسل الله على جيش أبرهة طيورا سودا ،

(17) بدا : اى ظهر ٠

مع كل طائر ثلاثة أحجار : حجر فى منقاره ، وحجران فى رجليه ، فرمتهم الطيور بالحجارة ، فكان الحجر يدخل فى رأس الرجل ويخرج من دبره فيرميه جثة هامدة • حتى أهلكم الله ودمرهم عن آخرهم • وكانت قصتهم عبرة للمعتبرين •

● موقف سلبى موحد :

لم يكن فى استطاعة عبدالمطلب وأهل مكة معه أن يواجهوا بسيوفهم قوات أبرهة التى باغتتهم ، ولكنهم استطاعوا أن يواجهوهم بسلاح المقاطعة •• لم يقابل المعتدين وفد للمفاوضة ولم يتركوا فى ديارهم طعاما ولا شرابا • ولا أحدا يخدم الجيش أية خدمات ، كما تفعل الشعوب الساقطة الضعيفة حين يتولى رعاياها جيوش الاحتلال •

وعلم الله أن هذا هو جهد الطاقة عند قريش من أجل الحرية والكرامة ، وعلم ما فى قلوبهم من صدق الضراعة المتمثلة فى أهازيج عبد المطلب التى رددها من بعده — لا قومه فقط ، بل رددها التاريخ فخورا سعيدا :

« **فانزل السكينة عليهم** »(١٨) وثأر لهم من عدوهم .. وحمى بيته الكريم .. وأهلك المعتدين عليه وعلى أهله . لأنه سبحانه يرفض الظلم « **ومن اظلم ممن منع مساجد الله ان يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها** »؟!(١٩) وكم من حكومات وشعوب استعمارية استهدفت المساجد خشية ما تفرزه من أبطال الايمان بالله والثقة به، خشية ما تبرزه قوة الايمان من ثورات تثل عروش الطغاة من الأفراد أو المؤسسات ، أو الشعوب المحتلة الغـازية « **وما ربك بظلام للعبيد** »(٢٠) . « **الم تر كيف فعل ربك بعاد . ارم ذات العماد . التى لم يخلق مثلها فى البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذى الأوتاد . الذين طغوا فى البلاد . فاكثروا فيها الفســاد . فصب عليهم ربك ســوط عذاب . ان ربك لبالمرصاد** »(٢١) .

● **تكرار طلب نصرة الحبشة ومصر :**

أرسل « شمر ذى ريدان » الى الحبش لينصروا

---

(١٨) الفتح : ١٨ (١٩) البقرة : ١١٤

(٢٠) فصلت : ٤٦ (٢١) الفجر : ٦ — ١٤

حلفه من عشائر حمير وعشائر سهرة على جيش سبأ وذى ريدان .

وبينما كان الملك « الشرح يحضب » ملك سبأ وذى ريدان ، مع جنوده فى معسكراته بين مأرب وصنعاء، أرسل « شمر ذى ريدان » كتائب « مصر » من حمير الى الأرض المحيطة بمدينة « بأسان » والى المدينة نفسها التى كانت قوية الاستحكامات وذلك استعادت المقاومة « سبأ وذى ريدان » .

فأسر « الشرح يحضب » بقواته الى تلك المدينة الحصينة ففتحها واستباحها ، وحصل جنوده على أسرى وغنائم . ثم تابع زحفه وراء جنود « شمر ذى ريدان » ، فهربت قواته التى كانت فى سهل « درجعان » ، واصطدم عسكره بقوات « شمر » فى أرض « مهاتف » وتمكنوا منهم كذلك . ثم اتجهت قوات « الشرح » الى مدينة « تعرمان » ففتحها وغنم وأسر كثيرا ، ثم عادت القوات الى مدينة «نعض» أو « ناعض » حيث توجد القيادة العامة ، ومن « نعض » تحركت كتائب « الشرح » لغزو القسم الشرقى من أرض « قشم » ثم الى « مهانف »

مرة أخرى ثم فتح مدينتى « عثى » و « عثر » ثم اتجه نحو مدينة « مذرحم » أو « مذرح » ثم غادرها بعد فتحها الى مدينة « ضاف » ثم « يكلا » ففتحها جميعا .. ثم عاد الى مدينة « نعض » حيث معسكرها الدائم . ومن هناك عاد « الشرح » الى صنعاء .

ومن صنعاء علم الملك أن « شمر ذى ريدان » أرسل رسلا الى عذبة (عذبت) ملك أكسوم ليدعوه الى شد أزر « شمر » وحلفائه .

فأرسل جيشا لمباغتة « شمر » ومن كانوا معه ، وفى الوقت نفسه أرسل رسلا الى الحبشة .. فانتصر على قوات «شمر» فى عدة مواقع . وعاق الحبشة بعض الوقت، ولكن « شمر » استطاع اقناع الحبشة بالانضمام اليه ، ومساعدته فى حروبه مع خصمه « الشرح يحضب » . فأمده « جرمة ولد نجشين » أى ولد النجاشى بكتائب حبشية محاربة قوت مركزه كثيرا ، ترأسها هو بنفسه . مما حمل الملك الشرح يحضب أن يترأس قواته المحاربة بنفسه وكان قوامها ألف محارب وستة وعشرين فارسا .

فاصطدم بقوات شمر ، ومزقهم شر ممزق ، واصطدمت رجالته بقوات ملك الحبشة فى موضع يسمى « أحدق » فاحدقوا بالأحابيش ، وأنزلوا بهم خسائر فادحة • وعاد النجاشى « جرمة » الى قواعده مغلوبا على أمره ، جزاء نكثه العهد ، وازدرائه بمهمة الرسل الذين أرسلهم «الشرح يحضب » اليه لاقناعه بعدم مساعدة « شمر ذى ريدان » ومن انضم اليه باعتبار النزاع القائم فى البلاد من شئونها الداخلية •

● **ما ثمرات التدخل الأجنبى ؟**

١ — ان التدخل الأجنبى لا يتم الا بعد أن يحدث اختلال فى البنية الاجتماعية ، وشقاق فى الروابط العائلية والقبلية •• ومعلوم أن التفرق ضعف ، والوحدة قوة •• ولهـذا كان لدى الأمم الكبرى الاسـتعمارية أجهـزة متخصصة لدراسة عوامل التفريق بين البلدان المتجاورة، أو بين أبناء البلد الواحد ، يتبع المخابرات جزء منه • ويتبع الرئاسة فريق آخر • فانه لا يمكن لدولة مهما عظمت أن تتمكن من دولة متحدة مهما صغرت • فان دولة المدينة المنورة استطاعت أن تواجه كل قوى الشرك مجتمعة فى

تلك الغزوات الشهيرة فى حياة الرسول ، وفى حروب الردة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومن هنـا كان حسن البنا يقول لتلاميذه : « انى لا أخشى عليكم الدنيـا مجتمعة مـا دمتم مستمسكين بأخوتكم . ولكن أخشى أن تفتح عليكم الدنيا فتتنافسوا فيها فتتفرق كلمتكم وتذهب ريحكم » .

٢ ـ ينتهى التشقق بطلب تدخل الأجنبى ، فاذا تمكن من الدخول دون مواجهة قوية من الشعب ، فانه يظـل محتلا لها ، ويتخذ من البلاد مزرعة لشعبه . فيسمن هو وأعوانه من الحكام الخونة ، وتجوع الرعية وتعرى .

٣ ـ التدخل يكسب الأجنبى كراهية الشعب المحتل كراهية لا تنتهى بخروجه ، فمصر لا تزال تكره الانجليز حتى بعد خروجهم ، ولا يزال الجمهـور الأعظم من اليمنيين يكرهون جيش عبد الناصر . ويكرهون السعوديين أيضا لتدخل مصر والسعودية فى شئون اليمن عند الانقلابات التى أطيح فيها بعرش الامام يحيى وذريته من بعده ، بالرغم من أن المعونات السعودية الأخوية لليمن لا تقف عند حد .

كنت فى زيارة لليمن لالقاء سلسلة من المحاضرات ،

من بينها محاضرات فى المساجد ، وارتديت عباءة (بشت) سعودية . فقال صاحبى : ان من يراك بهذا « البشت » اما أن ينصرف ، أو يجلس على مضض وقد صم أذنيه أو أغلق قلبه دون ما تقول ؟ تعجبت سائلا : حتى بعد أن فتحت السعودية ذراعيها لليمن ؟ قال : حتى مع هذا .. فلا تزال رائحة الدماء المطلولة على سفوح الجبال تذكر الناس بجيش عبد الناصر ، والجيش السعودى .

٤ — والحروب فى أرض جبليـة مجهـولة كاليمن وأفغانستان .. لا يمكن أن ينتصر فيها الأجنبى — ولا يمكن أن تنتهى معركة الا لتبدأ أخرى ، اذ سرعان مـا يسهل التجمع خلف التلال . وفى الأودية .. ومن هنـا كان طول الحرب فى اليمن بين سبأ وحمير قديما ، ثم بين اليمن وجيش عبد النـاصر أخـيرا — أو بين قبـائل ثم بين الحبشة وسيف بن ذى يزن من بعد — ثم بين اليمن وجيش عبد النـاصر أخـيرا — أو بين قبـائل الجنوب حتى انشطر الى يمن جنوبى ويمن شمالى ، ثم ينشطر الجنوبى الى شيع وأحزاب كلها تدعى الاتجـاه المـاركسى ، وما أسفرت الصراعات منذ ابتداء الانقلابات العسكرية الا عن مزيد من الاختناق الاقتصادى ، ومزيد

من التضـــخم ، ومزيد من التوتر ، بالرغم من الرغبـــة الشديدة فى تحسن الأحوال .. ولكن كيف تقوى البلاد أو تتحسن ، وأول الطريق القوة ، وأول القوة الوحدة ، ولا وحدة الا على أساس الأخوة الصادقة .. ولا أخـــوة الا على مبـــدأ واضـــح صحيح مقدس « **انما المؤمنون اخوة** »(٢٢) ، « **يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم**» ، « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ». بل يربط النبى صلى الله عليه وسلم ايمان الشعب بمقدار ما فى أفراده من التحاب فى الله فيقول عليه الصلاة والسلام: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »، وكل امرىء يحب لنفسه الحرية والأمن والغنى .. وأن يؤثره الآخرون بما طاب فى أيديهم ، بل التضحية والفداء له حين المعركة : « **ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يـــوق شـــح نفســـه فاولئـــك هم المفلحون** »(٢٣) ، فهل نحن كذلك .. ان لم نكن كذلك . فلنبحث عن الحب فى الله والتآخى فيما بيننـــا كما كان الأوائـــل . والا فسنظل كمن يحرثون فى البحر .

---

(٢٢) الحجرات : ١٠ (٢٣) الحشر : ٩

خراب سد مأرب

تحدث المؤرخ « موسل » عن سبب الهجرات العربية من اليمن الى خارج الجزيرة العربية وأسباب تحول الأرضين الخصبة صحارى — كما قال القرآن :

« لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور . فاعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل »(١) .

قال موسل : يرجع السبب الى عاملين : ضعف الحكومات ، وتحول الطرق التجارية .

فضعف الحكومات أدى الى الانشقاق عليها . ونشوب الفتن والاضطرابات واشتعال نيران الحروب ، وانصراف الحكومة والشعب عن الأعمال العمرانية . وتلف المزارع والمدن ، وتوقف الأعمال التجارية . وحصول

(١) سبأ : ١٥ ، ١٦

الكساد وانتشار الأمراض والمجاعة ، والهجرة الى مواطن أخرى يأمن فيها الانســان على نفسه وأهله •

فخراب ســد مأرب مثلا : لا يعود الى فعل الجفاف الذى أثر على الســد ، كما تصور ذلك « كيتانى » • بل يعود الى عامل آخر لا صلة له بالجفاف ، هو ضعف الحكومة فى اليمن ، وتدخل الحكومات الأخرى فى شئون العربيــة الجنوبيــة كالحبشــة والفرس ، مما أدى الى اضطراب الأمن فى اليمن ، وظهور ثورات داخلية وحروب كالذى يظهر من الكتابات التى تعود الى النصف الثانى من القرن السادس للميلاد ، فألهى ذلك الحكومة عن القيام باصلاح السد • فتصدعت جوانبه ، فحدث الانفجــار ، فخسرت منطقة واسعة من أرض اليمن مورد عيشها الأول، وهو المــاء ، ويبست المزارع التى كانت ترتوى منه ، واضطرت القبائل وأهل القرى والمدن الواقعة فيها الى الهجرة الى مواطن جديدة •

وتصدع الســد بسبب ضغط المــاء على جوانبه ، هو فى حد ذاته دليــل على فساد نظرية الجفاف •

ويرى « موسل » : أن التقدم الذى حدث فى البلاد

العربية بعد القرن التاسع عشر دليل آخر على فساد نظرية « كيتانى » .

فقد ظهرت مدن حديثة ، وعمرت قرى ، وشقت ترع وحفرت آبار ، وعاش الانسان والحيوان والنبات فى مناطق من العراق وسوريا ولبنان وفلسطين والأردن كانت تعد من الأرضين الصحراوية .

فليس الجفاف هو المانع من عمارة هذه المناطق ، والسبب فى تكون هذه الصحارى ، بل السبب شىء آخر ، هو ضعف الحكومات وانصرافها عن العمارة وعن المحافظة على الثروة الطبيعية وضبط الأمن ، ووقوفها موقف المتفرج تجاه قطع الناس للأشجار واستئصالها لاستخراج الفحم منها ، أو لاستعمال خشبها فى أغراض أخرى ، وقتال القبائل بعضها ببعض، هذا ..وان من الممكن اعادة قسم من الأرضين الجرد الى ما كانت عليه ، اذا ما تهيأت لها حكومة قوية رشيدة تنصرف الى حفر الآبار ، واقامة السدود ، وغرس الجبال ، وانشاء الغابات ، والاستفادة من مياه العيون[٣] .

---

(٢) المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام جـ ١ ص ٢٤٦ ، ٢٤٧

هذا درس من التاريخ العربى القديم لأحفاد العرب القدامى ممن لهم سـدود ، وعندهم مياه •• ويشكون تصحير الأراضى — أو « تطبيلها » أى ارتفاع نسبة المياه الجوفية التى تجعل الأرض غير صالحة للزراعة — أو يشكون الهجرة من القرى الى المدن ، أو الى خارج البلاد •• ويستغيثون : أيتها العقول الهاربة أو الطائرة الى الخارج : « بيتك بيتك » الى الوطن الى الوطن •

وليسأل الساسة التاريخ هل هناك وجه شبه •• صراع قبلى — صراع بين اقليم واقليم — دويلة ودويلة ••• حروب عربية عربية •• زلزال طارد للكفاءات التى فقدت حرية الكلمة ، والانتاج ، ووسيلة الانتاج•• ؟

فى دراستى لدرجة الماجستير عن الحياة الاقتصادية فى جزيرة العرب من القرن السادس الميلادى الى هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم قرأت أن تهامة كانت تصدر القمح عبر البحر الأحمر للسودان والزنوج فى افريقيا • فلما زرت اليمن رأيت آلاف الأميال تزهو بالأعشاب بلا حيوانات ترعى وبلا زروع للأقوات من قمح أو شعير • • لأن الناس هاجروا

.. والحكومة فى عـديد من الصراعـات . وفى مصر زرت الواحات فوجدت مناطق كثيرة كانت تزرع فأصبحت صحراوية لا تجد المـاء . فتذكرت آخر سـورة الملك :

((قل ارايتم ان اصبح ماؤكم غورا فمن ياتيكم بماء معين))(٣) ..
وتذكـرت انشـغال النـاس بمشـكلة المعتقـلين فى سجن الواحات وغيره من السجون .. والتصدع الداخلى بين السلطة وبين الأحزاب والجماعات المنحلة . والصراع بين الكتاب وبين الرقابة على الصحف والكتب ـ يومها ـ وبين عبد الناصر وأعضـاء مجلس الثـورة .. وظهور ما يسمى « الشلل » أو التكتلات . فقلت : بمثل هـذه الخـلافات فى مصر هلكت مصر قديما وفسد حالهـا :

((ان فرعون علا فى الارض وجعل اهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحيى نساءهم ، انه كان من المفسـدين))(٤) .

* * *

---

(٣) الملك : ٣٠

(٤) القصص : ٤

الأوس والخزرج

عندما اجتاح سيل العرم سد مأرب باليمن هاجرت الأوس والخزرج الى شـــمال جزيرة العرب ، واستوطنوا مدينة «يثرب» التى سميت فى الاسلام «المدينة المنورة».

وكان اليهود يسيطرون على المنطقة فأذاقوا القبيلتين مرارة الذل والضنك ، فاستجاروا باخوانهم القبـــابعة ، فهبـــوا لنصرتهم ، وكان بين الفريقين حرب انتهت بقتـــل زعماء اليهود وأشرافهم ، وأصبح الأوس والخزرج بعـــد ذلك أهل المدينة ، وكان قصارى أمنية اليهود حينذاك أن يظفروا بمعاهدة سلام مع هؤلاء العرب ، ليظفروا بالوقت الكافى لاستعادة قوتهم ، وتفريق كلمة الأوس والخزرج حتى يحطم بعضهم بعضـــا ، فيســـتعيدوا ســـلطانهم على القبيلتين .

وبالفعل استطاعوا أن يوغروا صـــدور الأوس على الخزرج ، ويوغروا صـــدور الخزرج على الأوس فوقعت بينهم الحروب التى شغلتهم عن اليهـــود ، واضطروا الى شراء الأسلحة من اليهود ليضرب بعضـــهم رقاب بعض .

فتتم التصفية البدنية والاقتصادية للكيان العربى بايدى العرب أنفسهم — كما هو الشأن الآن — بين العرب بعضهم مع بعض ، وبين العرب وايران ، وجميعهم منسوب الى التعداد الاسلامى .

وأشهر الحروب بين الأوس والخزرج يوم بعاث — وجاء ذكره فى صحيح البخارى — ويوم سمير ، ويوم حاطب . ويوم السرارة ، ويوم قباء ، ويوم الدرك ، ويوم كعب .

ثم جاء الاسلام فجمع به الله كلمة الأوس والخزرج ، فأصبحوا أعزة ، وأعداؤهم أذلة ، ولم يكن اليهود غافلين عن أن أول أسباب القوة والعزة اتحاد الكلمة ، وأن طريق الضعف والهوان هو افتراق الكلمة ومن ذلك ما رواه المؤرخون والمفسرون ، قالوا[1] :

يروى أن « شاس بن قيس » اليهودى مر على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج فى مجلس لهم يتحدثون . فغاظه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم بعد الذى كان بينهم فى الجاهلية من العداوة فقال :

---

(١) الكشاف للزمخشرى ، جـ ١ ص ٣٠١ — واسباب النزول للواحدى ص ٦٦

ما لنـــا معهم اذا اجتمعوا من قرار ، ثم أمر شـــابا من اليهود أن يجلس اليهم ويذكرهم يوم « بعاث » وينشدهم بعض ما قيل فيه من الأشعار ــ وكان يوما اقتتلت فيـــه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس ــ ففعل ، فتنازع القوم عند ذلك وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا : السلاح .. السلاح ، فبلغ النبى صلى الله عليه وسلم فخرج اليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار فقال : « أبدعوى الجاهليـــة وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالاسلام وقطع به عنكم أمر الجاهليـــة وألف بينكم » ؟ فعرف القوم أنها كانت نزعة من الشيطان وكيدا من عدوهم ، فألقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضا ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين فانزل الله عز وجل : **((يا ايها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين اوتوا الكتاب يردوكم بعـــد ايمـــانكم كافرين))(٢)** ، فسمى وحـــدتهم ايمانا ، والفرقة كفرا .

وذلك لأن الفرقة دافع الى الاســـــتنصار بالكفـــار وموالاتهم على حســـاب اخوانهم فى العقيدة . وهـــذا

(٢) آل عمران : ١٠٠

أول الانزلاق الى حب الكفـار .. ومن الحب يكون الانزلاق الى الرضا عما يقترفونه من حرام يحله دينهم .. ثم الرضا عن ملتهم فالدخول فيها .

ولهـذا أكـد وجـوب الاعتصـام بحبـل الله وذكرهـم بنعمـة الاخـاء فى الاسـلام فقـال :

« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون »(٣) .

وقوله سبحانه : **« ولا تفرقوا »** . تعنى لا تتفرقوا متابعين للهوى والأغراض المختلفة ، وكونوا فى دين الله اخوانا ، فيكون ذلك منعا لهم عن التقاطع والتدابر(٤).

وفى صحيح مسلم : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان اللـه يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا : يرضى لكم أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شـيئا ، وأن تعتصموا بحبـل الله جميعا ولا تفرقوا .

---

(٣) آل عمران : ١٠٣ .
(٤) تفسير القرطبى ، جـ ٤ ص ١٥٩ .

ويكره لكم ثلاثا : قيل وقال ، وكثرة السـؤال ، واضاعة المـال » • فأوجب تعالى علينا التمسك بكتابه وسـنة نبيه والرجوع اليهما عنـد الاختلاف ، وأمرنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسنة اعتقادا وعمـلا ، وذلك سبب اتفاق الكلمة وانتظام الشتات الذى يتم به مصالح الدنيـا والدين ، والسـلامة من الاختـلاف ، وأمر بالاجتمـاع ونهى عن الافتراق الذى حصـل لأهـل الكتابين •

ان كلمة « اخوانا » ساقها الله فى معرض ذكر النعمة « فاصبحتم بنعمته اخوانا » • فمن فقد حيـاة الأخوة فقد نعمة كبيرة • قال العلماء : وانما سمى الأخ أخا ، لأنه يتوخى مذهب أخيه (٥) ، أى يقصد ما يرضـيه من المسـالك الحميدة فيفعله ليرضـيه ، وهـذا يعنى أن الأخ يسـعد بموافقة أخيه فى غير معصية ، ولا يكون موقفه منه هو اتخاذ الطريق المخالف ، اثباتا للذات التى يرى فى المخالفـة تحقيقا لوجـودها ، شـأن الأطفـال والمراهقين •

* * *

(٥) تفسير القرطبى ، جـ ٤ ص ١٦٤ .

الفصل الثالث

فى العصـــر الأمـــوى

- عندما انقسم بنو امية .
- فتوح بنى امية .
- الانقسام القبلى بعد يزيد .
- فى عهـد عبـــد الملك بن مروان .. والوليد ابنه .
- الانقسام فى عهـد الوليد بن يزيد ابن عبد الملك .
- ما اسباب سقوط دولة بنى امية.
- صورة للخلافات الداخلية وتأثيرها على مكة .
- وفى العصر العباسى .

● **من عام الجماعة الى نهاية هشام بن عبد الملك :**

كان عام الجمـــاعة نهاية الفتنـــة الكبرى التى بدأت بمقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه ثم حروب صـــفين ومعركة الجمل والنهروان التى نشبت بعـــد تولى الامام على الخـــلافة عام ٣٦ هـ ، فكانت معركة الجمـــل يوم الخميس منتصف جمـــادى الآخرة ســـنة ٣٦ هـ ، وراح ضحيتها أكثر من خمسة آلاف مسلم •

ثم كانت معركة صـــفين فى أواســـط ذى القعـــدة سنة ٣٦ هـ ، بين على ومعاوية ، كان النصر فيها لمعاوية ، واتجه على رضى الله عنـــه الى النهروان ، بين واســـط وبغداد ، ليعظ الخوارج ، ومن ظل على خصومته قاتله ، حتى لحق بعضهم بالشـــام •

ثم رســـم الخوارج خطـــة لقتـــل على ومعـــاوية وعمرو بن العاص ، ســـاعة صلاة الصبح فى اليوم السابع عشر من رمضـــان ســـنة ٤٠ هـ ، فقتل عبد الرحمن بن ملجم عليـــا رضى الله عنـــه فى الوقت المحدد ، أما الذى

تقرر أن يهجم على معاوية ، فانه هجم عليه ، ولكنه لم ينل منه مقتلا ، قيل لأن معاوية كان دارعا ، وقيل لأن الاصابة جاءت فى الألية . وكان سمينا .

وأما صاحب عمرو فانه ذهب اليه فى الميقات ، وكان عمرو مريضـــا ليلتها ، فأناب عنه خارجـــة بن حـــذافة العدوى ليصلى بالناس الفجر ، وكان يبيت عنده ، فلما خرج من بيت عمرو هجم عليه الخارجى فقتله دون أن يستبصر من الخارج ، وهكذا قتل خارجة ، وذاع المثل : « أرادوا عمرا وأراد الله خارجة » .

وتولى الأمر بعده الامام الحسن بن على رضى الله عنهما ، فأراد أن يحقن دماء المسلمين فتنازل عن الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان على شروط :

١ ــ أن يكون للحسن ما فى بيت مال الكوفة ، وهو نصف مليون دينار .

٢ ــ أن يكون للحسن خراج « دار ابجراد » ، وهى ولاية بفارس .

٣ ــ أن يكون أمر الخلافة ــ بعد معاوية ــ شورى بين المسلمين ، يولون عليهم من أحبوا .

وهكذا صار معاوية صاحب السلطان فى الأقاليم كلها ، ودخل معاوية الكوفة فى جمادى الأولى سنة ٤١ هـ ، فبايعه الناس بمحضر الحسن والحسين ، ثم خرجا الى المدينة ، فسمى ذلك العام عام الجماعة . أما الحسن فقد وافاه الأجل بعد شهرين من وصوله اليها . وبدأ معاوية تولى أعباء منصبه ، ويستعيد حركة الفتوح والمد الاسلامى الذى توقف وقت الفتنة .

● فتوح بنى امية :

اهتم معاوية بن أبى سفيان بانشاء بحرية اسلامية ضخمة بلغت فى عهده فيما يقال (١٧٠٠ سفينة) استطاع بها أن يفتتح قبرص ، ورودس ، وأرواد وغيرها من جزائر بلاد اليونان . وبث فيها المسالح ، وجعلها مناظر للعرب ، يستطلعون منها تحركات الأعداء فى أوروبا .

وفى سنة ٣٤ هـ ، غزا الروم فسبى منهم مائة ألف انسان ، وبعث أخاه على البحر فانهزم الروم أمامه .. وحاصر بعد ذلك القسطنطينية ثلاث مرات[1] . كان

(١) فيليب حتى : تاريخ العرب (مطول) ص ٢٦٤

أقساها على المسلمين والكفار سنة ٤٨ هـ ، ولكنه لم يستطع فتحها ، وكان فى الحملة ابنه يزيد ، وعبد الله بن عباس ، وابن عمر ، وابن الزبير ، وأبو أيوب الأنصارى .

أما فى المشرق : فقد طلب معاوية الى أميره على بلاد السند أن يوغل فى الفتح ، فسار حتى بلغ بلاد القيقان ، فغنم ثم رجع ، ولما عاد ثانية الى ملك الديار قتل .

كما طلب الى المهلب بن أبى صفرة أن يتم فتح بلاد السند ، فسار حتى وصل « لاهور » .

وولى « سعد بن عثمان بن عفان » أمر فتح سمرقند، فغزاها وأصيبت عينه هناك . وملك كثيرا من بلاد الصغد ، ورجع غانما ، ثم أعاد الكرة فلقى ربه شهيدا هناك .

وأما فى الغرب : فانه فى سنة ٥٠ هـ ، أمر عقبة بن نافع ، الذى كان يرابط فى برقة وزويلة بعشرة آلاف جندى من أهل الشام بفتح افريقيا (تونس) وتم له فتحها ، وأسلم على يديه كثيرون من البربر أدخلهم فى جيشه ، وحسن بلاؤهم . وكانوا نواة جيش فتح بقية

شـــمال افريقيـــا والأندلس ، كمـــا ســـاعدوا فى فتـــح السـودان كذلك .

ولم يمت معاوية (٤٠ ــ ٦٠ هـ/٦٦٠ ــ ٦٨٠ م) الا وقد حصن ثغور الشام ومرافئه ، وأقام دور الصناعة البحرية فى صور ، وصـيدا ، وعكا ، والاسـكندرية ، لصنع السـفن والعدد الحربية البحرية .

ثم استدار الى النظم الادارية ، فاتخذ ديوان الخاتم ، وكان أول من خطب بمكة على منبر صـغير من ثلاث درجات ، وكان الخلفاء قبل ذلك يخطبون يوم الجمعـة وقوفا على أرجلهم فى وجه الكعبة ، وفى الحجر . قال ابن طباطبا : ان معاوية كان مربى دول ، وسائس أمم ، وراعى ممالك . ابتكر فى الدولة أشياء لم يسبقه اليها أحد.

وكان شـعاره : « لا أضـع سيفى حيث يكفينى سوطى ، ولا أضـع سـوطى حيث يكفينى لسـانى . ولو أن بينى وبين الناس شـعرة ما قطعتها ، اذا مدوهـا خليتها ، واذا خلوها مددتها » .

ويطيب خاطر الحسـن بعـد تنازله عن الخـلافة :

« أما بعد : فأنت أولى بهذا الأمر وأحـق به لقرابتك ، ولو علمت أنك أضبط له ، وأحـوط على حريم هـذه الأمة ، وأكيد ، لبايعتك ، فسل ما شئت »[٢] •

● وفى عهد يزيد (٦٠هـ ـ ١٤ ربيع الأول ٦٤ هـ) :

بعث يزيد قائده « مسـلم بن زياد » وواليـه على خراسـان ، أن يعبر النهر غازيا ملوك خراسـان حيث يتجمعون شـتاء فى مدينة مما يلى خوارزم ، بعد الغزوات الصيفية التى كان يشنها المسلمون عليهم ، ثم لا يعودون الى الغزو الا صيفا •

فلما قدم مسلم غزا ، فشتا فى بعض مغازيه ، فألح عليه المهلب ، وسأله التوجه الى تلك المدينة ، فوجهه فى ستة آلاف ، وقيل فى أربعة آلاف ، فحاصرهم حتى طلبوا الصلح • فبلغت قيمة ما أخذه منهم خمسين مليونا • فحظى بها المهلب عند مسلم •

وغزا « مسـلم » سـمرقند ، وعبرت معـه امرأته

(٢) محمد اسعد طلس : تاريخ العرب : المجلد الأول : ج ٤ ص ١٨ ـ ٢٠ ، ٢٢ ، ٣٠

« أم محمد » ابنة عبـــد الله بن عثمان بن أبى العـــاص الثقفية ، وهى أول امرأة عربية قطعت النهر ، فولدت له ابنا ســـماه « صفدى » .

وفى عهد يزيد كذلك غزيت سجســـتان بعـــد كابل شرقا — أما فى الغرب — فقد أعاد يزيد « عقبة بن نافع » من دمشـــق الى تونس أميرا عليها ، ولمـــا وصلها استمر فى فتوحـــه حتى بلغ طنجـــة والسوس الأقصى ، ورأى البحر المحيط . فقال : يارب ، لولا هذا البحر لمضيت فى هذه البلاد مجاهدا فى سبيلك . واســـتمر فى فتوحـــه حتى استشهد(٣) .

● **الانقسام القبلى بعد يزيد :**

مات يزيد ، وبويع لابنه أبى ليلى معاوية الثانى ، فلم يمكث الا ثلاثة أشـــهر ، وقيل : بل ملك أربعين يوما ومات وعمره احدى وعشرون سنة وثمانية عشر يوما .

روى الطبرى(٤) وابن الأثير(٥) أن معاوية الثانى فى

---

(٣) ابن الأثير جـ ٤ ص ٤٢
(٤) تاريخ الطبرى جـ ٧ ص ١٧
(٥) ابن الأثير جـ ٤ ص ٥١

آخر امارته أمر فنودى : « الصلاة جامعــة » فاجتمــع الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد .. فانى ضعفت عن أمركم ، فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت ســتة مثــل أهــل الشــورى فلم أجــدهم ، فأنتم أولى بأمركم . فاختــاروا له من أحببتم » ــ يعنى بالســتة أولئك الذين اختارهم عمر ليختاروا من بينهم أميرا للمؤمنين اذا مات من طعنة المجوسى له .

وأوصى أن يصلى الضحاك بن قيس بالنــاس حتى يقوم لهم خليفة ، فقيل لمعاوية : لو اســتخلفت ؟ فقال : لا أتزود مرارتها وأترك لبنى أمية حلاوتها .

واجتمع أهل الحجــاز وكثير من أهل الشــام مع ابن الزبير ، وآخــرون مع بنى أمية ، وهم بعض أهــل الشام ، وكان اليمنية بزعامة « كلب » مع بنى أمية ولكنهم انقسموا قسمين :

١ ــ قسم مع خالد بن يزيد ، الأديب العالم ، ولكنه صــغير .

٢ ــ وقسم مع مروان بن الحكم .

وكان القيسية بزعامة الضحاك بن قيس مع عبد الله ابن الزبير .

وقسم مستقلون ، لا يميلون الى هؤلاء ولا الى هؤلاء .

وأطلت الفتنة بذنبها ، وفى مرج راهط فى المحرم سنة ٦٥ هـ التقى مروان ومعه ثلاثة عشر ألف مقاتل .. بالضحاك ومعه جمع كبير كذلك — قيل يبلغ ثلاثين ألفا — وتفرق جمع الضحاك القحطانيون ، وتألق نجم مروان والعدنانيين القيسيين .

وأذكت هذه المعركة نار العصبية الجاهلية بين العدنانية والقحطانية ، لا فى الشام وحسب ، بل فى كافة أرجاء العالم الاسلامى ، وبخاصة فى خراسان ، ولقى المسلمون من جراء ذلك عنتا ، وقامت بين الجانبين حروب ومعارك استمرت آثارها الى أيامنا هذه .

وزحف مروان الى مصر حيث كانت بيعتها لابن الزبير ، وكان عليها واليه عبد الرحمن بن جحدم وانتصر المروانيون فبايعهم أناس ، ولم يبايعهم آخرون كالأكدر ابن حمام سيد اللخميين ، وهكذا لم يبايعه نفر كبير من

المعافر فضرب أعناقهم ، فثار اللخيمون لزعيمهم ، وكادت تقع فتنة كبرى لولا أن تداركها مروان بحكمته وحنكته ، وما استقر له الأمر حتى أرسل فرقة لاخضاع الحجاز وأخرى الى العراق .

وهكذا أودت الفتن الداخلية بالمسلمين الى تصدع قوتهم ، فثار أهل الرى على بنى أمية بقيادة « الفرحان الرازى » وظل القتال حتى قتل الرازى .

وفى خراسان قامت الفتنة والمعارك الطاحنة بين المهلب بن أبى صفرة ومعه اليمنية ، وبين عبد الله بن خازم ومعه النزارية ، ثم انشطر النزارية الى ربيعية ومضرية وقد استمرت هذه الفتن طويلا حتى قال أحد المضريين : ان ربيعة لم تزل غضابا على ربها منذ بعث نبيه من مضر(٦) .

وهكذا نشبت الفتنة فى كل من البصرة والكوفة ، وقامت المعارك بين الخوارج ومصعب بن الزبير ، ولم يصف الجو لبنى مروان الا بعد مقتل عبد الله بن الزبير

(٦) ابن الأثير جـ ٤ ص ٩١

فى جمادى الآخرة سنة ٧٢ هـ — وهو ابن ٧٢ سنة[٧] ، وهكذا توقف المد الاســلامى بالخلافات الداخلية وقلت المغانم ، وشغل الناس بالحرب عن الكسب والانتاج •

● فى عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ / ٦٨٥ — ٧٠٥ م) :

ورث عبد الملك المتاعب التى منشؤها الخلافات ، وشغلت طاقاته بالخلافات الداخلية :

١ — فها هو يواجه ثورة الشــيعة العلوية بامارة سليمان بن صرد فى عين الوردة ، وكانوا يسمون التوابين فقضى عليهم بفضل قائده المظفر عبيد الله بن زياد •

٢ — وتلا ذلك ثورة المختار بن عبيد الثقفى عامل الكوفة من قبل الزبير بن العوام ، وقد تظاهر بأنه علوى ، فانضوت الشيعة بفرقها العــديدة تحت لوائه : التوابين والكيسانية ، والســبئية • ولم تكد تنتظم فرق الجيش الأموى وتخرج من دمشق فتبلغ أراضى الفرات حتى ثار

(٧) محمد أســعد : تاريخ العرب ، المجــلد الأول ج ٤ الباب الثالث ص ٤٨ — ٥٣

عمرو الأشدق على عبد الملك فى دمشق ، فأخذ عبد الملك يتلطف مع عمرو حتى تمكن منه وقتله بعد أن أمنه . وكان هذا أول غدر فى الاسلام كما زعم كتاب الشيعة(٨) .

٣ — ثم ذهب عبد الملك الى العراق ، واستطاع أن يجتذب اليه قيسا ، وبهذا سيطر على جناحى النسر العربى ، قيس واليمن ، وتيسر له الطريق الى الكوفة فدخلها مظفرا سنة ٧١ هـ .

٤ — ثم كانت المعارك بين الأمويين والخراسانيين ، فانتصر القائد الأموى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث على رتبيل وكتب بانتصاره الى الحجاج ابن يوسف يهنئه فى البصرة ، فأرسل الحجاج اليه يحمد له جهاده وأمره أن يستمر فى الغزو ، فاعتذر ، فأرسل الحجاج يؤنبه ، فغضب عبد الرحمن ورجع الى العراق معلنا خلع الحجاج وعبد الملك . وتشبت معركة دير الجماجم سنة ٨٢ و سنة ٨٣هـ ، حتى تراجع عبد الرحمن الى سجستان

٥ — وكانت فتن الخوارج المشهورة .

---

(٨) مروج الذهب جـ ٢ ص ١١٦

٦ — والفتن بين قيس وكلب : قيس زبيريون ، وكلب مروانيون ، واشتهرت المعارك بينهما فأصبحت من أيام العرب : يوم مرج راهط — يوم بنات قين — يوم ماكسين — يوم الثرثار الأول — يوم الثرثار الثانى — يوم الفدين — يوم السكر — أو سكر العباس — يوم المعارك — يوم لبى — يوم بلد — يوم الشرعبية — يوم البليخ — يوم الحشاك — يوم الكحيل — يوم البشر ، أو الرحوب[٩] .

هذه عراقيل تهد كيان القوى .. ولكن الأمير المسلم يتخطى العراقيل ، ويحافظ على كل ما فى الشريعة من تعاليم ، ومنها : « **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** »[١٠] .. وهكذا الشعب المسلم يفيق الى هذه المعوقات عن الغايات الكبرى ، فينصرف عن عوامل الفرقة . ويأوى الى راية الجماعة .. من هذين الموقفين الواجبين على الحاكم والرعية . لم يغفل عبد الملك وجمهور المسلمين عن جهاد الأعداء .

---

(٩) تفصيل هذه الأيام فى تاريخ العرب لمحمد أسعد . المجلد الأول جـ ٤ ص ١٠٥ — ١٠٨

(١٠) الأنفال : ٣٩

ففى الشرق : وصل جيش الطواويس بلاد رتبيل وسجستان ، بقيادة ابن الأشعث ، كما بلغ المهلب بن أبى صفرة بلاد «كش» وحين أدركته منيته فى الطريق قام ابنه يزيد باستكمال أهدافه فسار بالجيش حتى بلغ قلعة نيزل بـ « باذغيس » . فحاصرها وملكها وغنم ما فيها ، وكانت من أحصن القلاع وأمنعها[11] .

وفى المغرب : حاربت جيوش عبد الملك المرتد كسيلة ابن كرم البربرى فهزمته وأنصاره من البربر والروم وملوكهم ، وكان على رأس الجيوش التقى الزاهد زهير ابن قيس البلوى ، وآثر أن يعود من مواقع النصر فى مواطن الرخاء والنعمة قائلا : « انما قدمت للجهاد . فأخاف أن أميل الى الدنيا » واستمر غازيا حتى مات .

وخلفه فى شمال افريقيا حسان بن الضحاك فاستكمل فتح افريقيا الشمالية كلها ، ولم يترك موضعا من بلادهم الا وطئه ، ثم جرت له وقائع مع الكاهنة ... مع جبروتها

---

(۱۱) ابن الأثير جـ ٤ ص ٩٤

وطاعة جنودها لها طاعة عمياء ، وقد انتهت هذه الوقائع بتشتيت كل قواتها — من البربر — ثم دخلوا فى الاسلام •• وتقرر الاستمرار هناك حتى يتوطن الايمان فى قلوبهم فحسن اسلامهم(١٢) .

● **وفى عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦ — ٩٦ هـ / ٧٠٥ — ٧١٥ م) :**

جنى ثمار اخمـاد والده للفتن الداخلية واستكمل الفتوح ••

ففى المشرق : سـار قائده قتيبة بن مسلم البـاهلى أميرا على خراسـان ، وقطـع نهر بلخ بجيش كثيف أرهبت أخبـاره ملـوك مـا وراء النهر ، فخافوا ، وتلقـاه مـلك الصـغانيان بالهـدايا ، وهـو يحمـل مفاتيح بلاده من ذهب فدخلهـا ، ثم سار الى « أخرون » و « شـومان » فى طلخارسـتان ، فصـالحه صاحبها ، ثم انصرف الى مرو ، وبعث أخاه « صالح بن مسلم »

---

(١٢) ابن الأثير جـ ٤ ص ١٤٣ وتاريخ العرب لمحمد أسعد المجلد الأول جـ ٤ ص ١٠٨ — ١١٠

ومعه نصر بن سيار لفتح بلاد كاشاه ، وأورشت فى فرغانة، وأخسكيث مدينة فرغانة . وهكذا تم لقتيبة ومن معه فتح بيكتد والصغد والترك فى سنة ٩٠ هـ ، وقد أبلى الأزد وتميم فى ذلك اليوم بلاء حسنا . وفى سنة ٩١ هـ غزا شومان وكش ونسف ففتحها . وفى سنة ٩٣ هـ ، غزا خوارزم وسمرقند . وفى سنة ٩٤ هـ ، غزا قتيبة الشاس وفرغانة . وفى سنة ٩٦ هـ ، غزا بلاد الصين ، ووصل كاشغر . فصالحهم ..

كما أن الوليد أرسل أخاه مسلمة لغزو الروم فى سنة ٨٧ — ٩٥ هـ فوصل سوسنة من ناحية المصيصة ، ففتح حصونا كثيرة ، وقتل منهم مقتلة عظيمة .. واستمر الغزو، وفتح الحصون والبلاد حتى سنة ٩٥ هـ .

وفى المغرب : ولى الوليد «موسى بن نصير» علىافريقيا كلها . وعلم موسى أن بعضالبربر خلعوا الطاعة فأرسل اليهم ابنه عبد الملكفأخضعهم وسبى نحو ستينألفا — وسار موسى حتى فتح طنجة ووضع عليها مولاه طارق بن زياد، فأخذ طارق يعلم البربر القرآن حتى قوى ايمانهم فغزا بهم

الأندلس سنة ٩٢ هـ ، وكانت خاضعة للقوط منذ أوائل القرن الخامس للميلاد ، وساعد المسلمين على ذلك ما أصاب الأندلس من الخلافات الداخلية اذ أنها انقسمت قسمين ، أحدهما : مع أخيل ، وقد تحالف معه جوليان الذى استعان فيما بعد بموسى بن نصير • والثانى : مع رودريق •

وساعد المسلمين على النصر انضمام غيطشة امبراطور الأسبان الذى كان قد عزل سنة ٨٩ هـ ، وولى مكانه رودريق •

وهكذا أصبحت الأندلس فى عهد الوليد ولاية اسلامية أو خاضعة للنفوذ الاسلامى(١٣) • فقد وصلت جيوش المسلمين الى جبال البرانس التى تفصل الأندلس عن فرنسا • وطمع طارق وموسى بن نصير اللخمى(١٤) أن يستمرا فى فتح أوروبا حتى يصلا الى القسطنطينية ،

---

(١٣) تاريخ العرب لمحمد اسعد ، المجلد الأول جـ ٤ ص ١١٥ — ١٢٠

(١٤) توفى موسى بن نصير سنة ٩٧ هـ •

ويجعلا البحر الأبيض المتوسط بحيرة اسلامية . لولا أن القلب الكبير قلب الخليفة الوليد خشى خطر هذه المغامرة على المسلمين ، وآثر الأناة حتى يندمج الفاتحون مع أهل البلاد المفتوحة ، ويدخل قلوبهم الايمان بالدين الجديد .

وتلك هى بركات استقرار الدولة الأسلامية ، وطهارة قلوب الحكام . امتداد فى الفتوح ، وازدهار فى العمران ، وارتقاء بمستوى الخدمات .

فبالرغم من أن الخراج انكسر فى أيامه . فقد كان الوليد يتفقد أحوال العجزة والمســاكين . فهو أول من شــاد البيمارســتان فى الاســلام ، وبنى دور المرضى للمجذومين ، وأجرى الأرزاق على العميــان والمرضى ، والقراء ، والفقهاء ، وقوام المساجد ، وأقام طعمة رمضان، وغير ذلك من أعمال الخير والبر(١٥) .

---

(١٥) المرجع السابق جـ ٤ ص ١٢٥ ، ١٢٦ ، وخطط الشام لكرد على جـ ١ ص ١٥٣

● **نكسة عهد سليمان بن عبد الملك (٩٦ — ٩٩ هـ / ٧١٥ — ٧١٧ م) :**

لم يكن عهد سليمان طويلا فهو لم يتجاوز فى الحكم عامين وبعض عام • ومع أنه أفرج عن المسجونين المظلومين بأمر الحجاج، وأعتق سبعين ألف مملوك ومملوكة وكساهم، وأبعد أعوان الحجاج عن السلطة ، الا انه أصدر أمره بعزل قتيبة بن مسلم لأنه كان من جماعة الحجاج ، وكان قد وافق الوليد على عزل سليمان من ولاية العهد ، فرفض قتيبة قرار العزل • ونشبت ثورة راح ضحيتها قتيبة •• وحزن لمقتله الملايين •

● **وجاء عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ / ٧١٧ — ٧٢٠ م) :**

وكان عهده فى المحامد أشهر من أن يذكر • فقد قام باصلاحات كثيرة كانت لخير الاسلام وان أضرت ببيت المال ، اذ أنه قد رفع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة • وخفف الضرائب عن المسلمين ، وبخاصة عن الفرس الذين كان بنو أمية يرهقونهم •• ولكن سياسة اللين التى اتبعها بعثت قرون الفتنة النائمة كالخوارج والعباسيين والعلويين•

ومات عمر بن عبد العزيز مخلفا تلك المشـكلة الكبرى لوارث ملكة يزيد بن عبد الملك (١٠١ — ١٠٥ هـ / ٧٢٠ — ٧٢٤ م) . فلم تلن له قناة فى اخضاع الثوار ، وارتفع بجدل النـاس عن المذاهب الفكرية الى متابعـة غزوه للكفار فى خراسان وما وراء النهر(١٦) .

● **فى عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥ هـ / ٧٢٤ — ٧٤٢ م) :**

أرسل هشام قادته لفتح بعض البلاد .

ففى سنة ١٠٥ هـ ، غزا الجراح الحكمى بلاد اللان حتى جاوز مدائن وحصونا وراء بلنجر ، ففتح وأصـاب غنائم كثيرة ، كما غزا مسلم بن سعيد الكلابى أمير خراسان بلاد الترك وان لم يفتح شيئا ورجع .

وفى سنة ١٠٦ هـ ، قطع مسلم بن سعيد النهر ولحق به جماعات كثيرة من العرب فوصل الى فرغانة فدخلهـا وأوغل فيها الى أن صالحه أهلها.

وفى سنة ١٠٧ هـ ، غزا عنبسة بن شحيم الكلبى عامل الأندلس فرنسـا فى جمع كثير ، ونازل مدينة فرقسـونة

(١٦) تاريخ العرب لمحمد اسعد ج ٤ ص ١٤٢ — ١٤٤

فصـــالحه أهلهـــا على نصف أعمـــالهم ، وعلى جميـــع ما فى المدينة من أسرى المسلمين وأســـلابهم ، وأن يعطوا الجزيـــة ويلتزموا بأحكام الذمة من محـــاربة من حاربه المسلمون ، ومسالمة من سالموه ، فعاد عنهم وتوفى فى شعبان من تلك السنة .

وفى سنة ١٠٨ هـ ، قطع أسد بن عبيد الله القسرى أمير خراسان النهر ، وفيها غزا مسلمة بلاد الروم ففتح قيسارية وهى من أمهات مدنهم وأكثرها تحصينا . كما غزا ابراهيم ابن هشام الروم ، ففتح عدة حصون لهم هناك .

وفى سنة ١٠٩ هـ ، غزا عبد الله بن عقبة الفهرى بلاد الروم فى البحر ، ومعاوية بن هشـــام بالبر ففتح حصن طيبـــة .

وفى سنة ١١٠ هـ ، أرسل أشرس بن عبد الله السلمى الى أهـــل سمرقند والصغد وما وراء النهر يدعوهم الى الاسلام على أن توضع عنهم الجزية . فقبلوا ودخلوا فى الاسلام .. فقل الخراج . فكتب أشرس الى عامله عليهم أنهم انما أسلموا تعوذا (فرارا) من الجزية . وان فى الخراج قوة للمسلمين ، فانظر من اختتن ، وأقام الفرائض .

وقرأ سورة من القرآن فارفع خراجه • فثار أهل البلاد ، وقالوا : أسلمنا وبنينا المساجد ، وجرت بسبب ذلك فتن •• ولو أنه سار على هدى عمر بن عبد العزيز حين سـئل عن نفس المشكلة • فرفض هذا الرأى وقال لمن اقترح عليه استدامة الخراج : قبح الله رأيك انما بعث الله محمدا (عليه الصلاة والسلام) هاديا ولم يبعثه جابيا •

وفى سنة ١١١هـ ، عزل الخليفة هشام عامله أشرس ابن عبد الله الذى كان سبب الفتنة وولى بدلا منه الجنيد ابن عبد الرحمن المرى •

وفى سنة ١١٣هـ ، غزا عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى أمير الأندلس فرنسا • وأوغل فى أرضهم وغنم •• وفى العام الذى بعده (١١٤ هـ) غزا فرنسا مرة ثانيا وقتل هناك شهيدا •

وهكذا كانت الغزوات تتابع مع النصر ولكن ••

ولكن جاء الداء القتال •• الاختـلاف المذهبى • والخلاف أو الصراع من أجل ما يمكن أن تمضى معـه الحيـاة •

ثار زيد بن على بن زين العابدين بن الحسين بن على ابن أبى طالب على هشام فى سنة ١٢١ هـ ، ولم يشفع له كل ما ذكرناه له من فتوح .

وثـــار عليه العباسيون فى خراســـان بقيـــادة بكير ابن ماهان سنة ١١٨ هـ ، بمؤازرة عمار بن يسار .

وثار عليه أصحاب المقالات والبدع فكان ما لا تحمد عقباه . وجاء بعده خلفاء ضعاف فى الوقت الذى كانت الثورة العباسية والعلوية قد شبت عن الطوق ، وأوشكت شجرتها أن تؤتى ثمارها .

● عهد الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ — ١٢٦هـ/ ٧٤٣ — ٧٤٤ م) :

انقسم الناس قســـمين :

قسم مع يزيد ، وهم قيس « المضرية » .

وقســـم على يزيد ، وهم أهله « اليمانيـــة » الذين أثخنـــوا فى المضرية حتى احـــتلوا دمشـــق ، وخلعوا

الوليد . فلم يلبث فى الخلافة سوى سنة وشهرين وأياما .

كما أن الفتن لم تتوقف بخلع الوليد ، بل تطورت ، فقتل بعد عزله ، فاستشرت الفتنة بين قيس وبين اليمانية فى خراسان ، واليمامة ، وسائر دول المشرق ، وشغل المسلمون بالحرب الداخلية عن جهاد الكفار — كما هو حالهم اليوم فى الثمانينيات .

وفى سنة ١٢٦ هـ ، طالب مروان بن محمد بدم الوليد المطلول . دون اعتبار بما رواه التاريخ من فتنة « قميص عثمان » .

● **ولاية يزيد بن الوليد بن يزيد (١٢٦ هـ/٧٤٤ م) :**

تولى يزيد بن الوليد الامارة ، فلم يلبث بها أكثر من ستة أشهر ، ومات وله من العمر ٤٦ سنة ، وكان من القدرية ، فاستخلف أخاه ابراهيم من بعده لأنه كان من جماعتهم ، وكان يزيد دينا ورعا . أراد أن يعيد للخلافة أبهتها ، فحال دون ذلك عمره القصير .

● **ابراهيم بن الوليد (١٢٧ هـ / ٧٤٥ م) :**

كان ضعيف الشخصية ، وأمه أم ولد[١٧] . ولم يطل عمره فى الخلافة أكثر من سبعين ليلة ، وقيل أربعة أشهر ، اذ ثار عليه مروان بن محمد ، وتولى الخلافة من بعده .

وفى عهد ابراهيم وقعت معركة « عين الجر » بين مروان ومعه ثمانون ألف مقاتل ، وبين ابراهيم بن الوليد وكان قائده فى المعركة ابراهيم بن الوليد على رأس جيش قوامه (١٢٠ ألف) مقاتل . وهذا العدد الضخم من المقتلين فى كلا الطرفين ، يعنى أن الفتنة كانت شطرت مسمى منطقة الشرق الأوسط شطرين عظيمين متقاتلين ، يجنى العدو الكافر ثمرة انهاك الحرب لهما كليهما ، المنتصر والمهزوم .

وبخدعة حربية من مروان استطاع قتل نحو (١٧ ألفا)من جند ابراهيم ، وأسر نحو ذلك . فتفرق الجمع

١٧) أم الولد : أمة من الاماء يعاشرها سيدها الذى يمتلكها معاشرة الأزواج ، فاذا أنجب منها فان أولادها اذا عاشوا بعد وفاة سيدها يكونون سببا فى عتقها شرعا .

واســتولى على السلطة • ولكن قانون الحياة يمضى • فما جاء بالسيف ذهب بالسيف •

● **فى عهد مروان بن محمــد (١٩٧ — ١٣٢ هـ / ٧٤٤ — ٧٤٩ م) :**

هو آخر خلفاء بنى أمية ، ويقال له مروان الحمار ، كما يقال له مروان الجعدى ، نسبة الى أستاذه « الجعد ابن درهم » القائل بنفى القــدر ، وبخلق القرآن ، وبنفى الصفات الأزلية عن الله •

وبعد أن ولى الخلافة ثلاثة أشــهر ثار عليــه أهل حمص بزعامة ثابت بن نعيم ، فبعث اليهم مروان جيشـا دخل المدينة وفتك بالثوار ســنة ١٢٧ هـ ، وهرب ثابت الى فلسطين •

ثم جاء أهل الغوطة فحاصروا دمشــق بزعامة يزيد ابن خالد القسرى ، فبعث اليهم مروان عشرة آلاف جندى فتكوا بالثوار ، وحرقوا المزة من قرى اليمانية •

وفى الوقت ذاته كان ثابت بن النعمان قد استطاع جمع أنصار له فى فلسطين ، وما أن نهضوا بالثورة حتى كانت قوى مروان قد داهمتهم ومزقتهم •

ونشبت ثورة أخرى فى تدمر ، فأرســـل اليها مروان من أخمدها . وهدأت الحال الهدوء الذى يسبق العاصفة ، اذ ثار سليمان بن هشـــام بن عبد الملك فى قنسرين ، فأتاه مروان فهزمه ، وفر سليمان الى تدمر(١٨) .

وهكذا نشبت ثورات العلويين ، والشيعة العباسية ، وغيرهما بالعراق ، فأوقع بهم فى عدة أماكن كان أبو مسلم الخراسانى قد جمع فيها جموعه المنظمة المعبأة روحيـــا ، واستطاعت قوات أبى مسلم ملاحقة جيوش مروان ، حتى قتل مروان فى ذى الحجة سنة ١٣٢ هـ ، قرب قرية أبو صير فى صـــعيد مصر ، وبموته انتهت « المملكة الأموية » ، دمرتها الخلافات بأنواعها ، وعطلت الفتـــوح ، وتوقفت عجلة الانتاج ، وزالت بهجة الرخاء والاخاء . بل سقطت دولة بنى أمية فى المشرق . ((**وتلك الأيام نداولهـــا بـــين النـــاس**))(١٩) .

---

(١٨) ابن الأثير جـ ٥ ص ١٢٢ ، ١٢٣
(١٩) آل عمران : ١٤٠

• ما أسباب سقوط دولة بنى أمية ؟

كان العهـد الأموى (٤٠ — ١٣٢ هـ) فى المشرق عهد فتوح اسـلامية نشرت الهداية والعلوم ، ووضعت فيه الدولة الكثير من القوانين والترتيبات الادارية • • وفيـه بدأ عصر الترجمة والتأليف ، وبالتـالى انبثـاق الحركات الفكرية وما يسمى الفلسـفة الاسلامية ، فما هو سر سقوطها ؟

روى المسعودى عن بعض شـيوخ بنى أميـة أنه سئل : ماذا كان سبب زوال ملككم ؟ فقال :

١ — انا شـغلنا بلذاتنا عن تفقـد ما كان تفقـده يلزمنـا ، فظلمنا رعيتنا ، فيئسوا من انصافنا •

٢ — وجار عمالنا على رعيتنا فتمنوا الراحة منا •

٣ — وتحومل على أهل خراجنا (الفلاحين والعمال) فجلوا عنا ، وخربت ضياعنا ، فخربت بيوت أموالنا •

٤ — ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا ، وأمضوا أمورا دوننا أخفوا علمها عنا •

٥ — وتأخـر عطـاء جنـدنا فزالت طاعتهم لنـا ، واستدعاهم عدونا (كأبى مسلم) فظافروه على حربنا ، وطلبنا أعداؤنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا •

٦ ــ وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا (فقد كان العلويون والعباسيون ينظمون مؤامراتهم ضد الأمويين منذ مقتل الحسين) •

ويضاف الى ذلك :

٧ ــ جعل ولاية العهد لأكثر من شخص واحد بذر الشقاق بينهم وبين أنصار كل منهم طمعا فى المغانم من سيصل الى دست الحكم •

٨ ــ انشقاق البيت الأموى على نفسه بعد أن تضعضعت أركان الدولة ، حتى صار يقتل بعضهم بعضا من أجل الوصول الى سلطة آيلة للزوال •

٩ ــ فشو روح العصبية بين القبائل العربية الحاملة لواء الدولة الأموية •

١٠ ــ كره الموالى للعرب عامة ، ولبنى أمية خاصة ، لأنهم أقصوهم عن الملك ، فانبعثت فيهم روح الشعوبية[٢٠] ، ويراد بالموالى أبناء الشعوب المفتوحة وان كانوا أحرارا ممن لم يقع عليهم الأسر والرق •

---

(٢٠) طلس ، تاريخ العرب المجلد الأول جـ ٤ ص ١٧٧ ــ ١٨٠

١١ — قيام بعض الأحزاب والحركات الدينية والسياسة كالخوارج والشيعة العلوية والشيعة العباسية وغير ذلك ، مما جعل الخلافات فى القمة وبيت الخلافة ورجال السلطة ، كما هى فى القاعدة الشعبية العريضة .

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه الا أوتوا الجدل » .

وصدق الله العظيم حين ربط طاعة الله ورسوله بالنهى عن التنازع فقال : **« واطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا ، ان الله مع الصابرين »(٢١) .**

وصدق فيهم ما أنذرهم به من أخبار من قبلهم ممن هم خير منهم فى الاجتهاد صدقا ونية حين قال فى الذين اختلفوا يوم أحد : أيتركون مواقعهم فى الجبل بعد النصر أم يظلون حتى يأتى لهم أمر صريح بمغادرة مواقعهم ، فمحق اختلافهم ما ناله المسلمون من النصر : **« ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسنونهم باذنه ، حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الامر وعصيتم من بعد ما اراكم**

---

(٢١) الانفال : ٤٦ — وريحكم : اى قوتكم .

ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين »(٢٢) .

وفى القرآن يوصينا الله بترك الخلاف وأسبابه فى كل صوره فيقول : **« وان الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد »** (٢٣) . ويقول فيمن جاءوا بعد المرسلين من الأتباع :

« ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر »(٢٤)

فمع وضوح البينات انزلق بهم الخلاف والحرص على الانتصار للرأى الى درجة الكفر . ولهذا قال سبحانه :

« ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات »(٢٥) .

والأصل فى البشر أنهم أمة واحدة من أب واحد ، انما يفرقهم الخلاف الى شراذم وأمم :

---

(٢٢) آل عمران : ١٥٢ (٢٣) البقرة : ١٧٦
(٢٤) البقرة : ٢٥٣
(٢٥) آل عمران : ١٠٥

« وما كان النـــاس الا امة واحـــدة فاختلفوا ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون »(٢٦) ، أى لعجل عقابهم بسبب اختلافهم .

وقد يخدع الشيطان البعض فيزين لهم أنهم انمـــا يدافعون عن حق ثابت منطقيا وعلميا ، وينسون أنهم بنزعة البغي يصرون على طلب النصرة للنفس باسم الانتصار للرأى: **« فما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم »(٢٧)** .

وكذلك حسم القرآن أسباب الفرقة بأمرين :

١ — الرجوع الى الكتـــاب والســـنة ، واستطلاع ما يقوله العلماء بالكتاب والسنة : **« فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرســـول ان كنتم تؤمنون بالله واليـــوم الآخـــر »(٢٨)** .

٢ — المصالحة ، ثم الانتصار لصاحب الحق من الظالم اذا لم يستجب للجنة المصالحات من أهل الحكمة والعلم : **« وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء الى**

(٢٦) يونس : ١٩ (٢٧) الجاثية : ١٧
(٢٨) النساء : ٥٩

امر الله ، فان فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ، ان الله يحب المقسطين . انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون »(٢٩) .

● صورة للخلافات الداخلية وتأثيرها على مكة :

عنـدما كان الخلفـاء الراشـدون كان تنعم مكة والجزيرة العربية بما يفيض الله على المجاهدين من الغنائم والفيء ، وهكذا كان العهد فى أيام الأمويين ، لعصبيتهم العربية ، وبقايا أخلاق العرب من الكرم والوفاء ، ولقرب عهدهم من قوة الدفعة الاسلامية الأولى .

فلما كان الحكم ليزيد وثار عليـه الحسين بن على رضى الله عنهما ، وكان مصرعه بكربلاء ومعه عـدد من خيار الصحابة ، وثارت المدينة حزنا عليهم ووقعت نكبـة الحرة لليلتين بقيتا من ذى الحجة سنة ٦٣ هـ ، اذ دارت رحى القتال على أهل المدينة ، فقتل أميرهم عبد الله بن حنظلة الغسيل الذى ولوه الأمر بعد طرد عثمان بن محمد ابن أبى سـفيان والى المدينة من قبل يزيد بن معاوية ،

(٢٩) الحجرات : ٩ ، ١٠ .

واستباح مسلم بن عقبة قائد الحملة الأموية المدينة ثلاثة أيام .

ثم اتجه مسلم بن عقبة الى مكة للقضاء على حركة عبد الله بن الزبير وأخذ البيعة منه ليزيد . فمات فى الطريق .

وتولى الجيش من بعده الحصين بن نمير ، فبلغ مكة فى المحرم وحاصرها مدة صفر ، وفى أوائل ربيع الأول ضاق « الحصين » ذرعا بأهل مكة فقذف البيت العتيق بالمجانيق ، فاذا بالله تعالى يتوفى يزيد بن معاوية ، فيتخاذل الحصين بن نمير ، ويفك الحصار ، وبهذا نمت دعوة ابن الزبير . ولكن لم يتركه الأمويون ، فقد نصب الحجاج بن يوسف الثقفى المنجنيق عليه وعلى من معه فى الحرم المكى .. كما تابع الأمويون الأزارقة الخوارج فى « دولاب » من أرض الأهواز ففتك بهم مسلم بن عبيس ابن كريز أمير البصرة ، وقتل زعيمهم نافعا فى سنة ٦٥ هـ وبعض عناصرهم القيادية ، فاجتمع بقيتهم ضده فقتلوه وفرقوا جيشه حتى عاد الى البصرة ، فخرج للقائهم المهلب بن أبى صفرة فطاردهم حتى كرمان وأصفهان ،

ثم عـادوا من أصـفهان الى العراق فعـاد المهلب الى مطاردتهم(٣٠) .

وكما كانت خراسان ودول المشرق مع ابن الزبير — كانت مصر مبايعة لابن الزبير كذلك ، وورث مروان هذه المتاعب التى استمرت طوال عهده بالاضـافة الى فتنـه المختار بن أبى عبيد الثقفى ، وجاء من بعده عبد الملك بن مروان . فاستطاع الاجهاز على الصفرية المقيمين فى الموصل وبلاد الجزيرة بالعراق ، وهم فرقة من الخوارج يتزعمها صالح بن مسرح التميمى ، كما أجهز على فرقة أخرى فى طبرستان كان يتزعمها قطرى بن الفجاءة .

وكل ذلك على حساب القوة الاسلامية ولمصـلحة الأعداء ، فأرسل ملك الروم الى نصارى لبنـان بالعون المـادى والعسكرى فسيطر الكفار على أنطاكية والجبل الأسـود وجبال لبنان وسـنير وجبـل الثلج وجبـال لبنان ، واضطر عبد الملك أن يبعث اليهم بالأموال ليكفوا حتى يفرغ اليهم من ثورات أهل العراق وغيرهم .

(٣٠) الطـبرى جـ ٧ ص ١٣٠٥ ، ومروج الذهب للمسعودى جـ ٢ ص ٩٢ ، والفخرى لابن طباطبا ص ١٠١

وفى ســـنة ٧٠ هـ ، اجتمع الروم ، واستجاشوا على من بالشـــام ، فصالح عبد الملك ملكهم على أن يؤدى لهم كل جمعة ألف دينـــار .. وظل كذلك نتيجة الخـــلاف الداخلى بين المسلمين الى أن صفا الجو لعبد الملك ، وواليه على طرابلس سحيم بن المهاجر ، الذى تظاهر بالاخلاص لملك الروم وقادته ، حتى يتعرف أسرار العـــدو ، وبعـــد الاســـتقرار ونوم الفتن المذهبية أمكن الفتـــك بالعـــدو الخارجى من الروم .

* * *

● **وفى العصر العباسى :**

لقى العرب ـــ بســـبب تســـلك الفرس والترك فى مكة والجزيرة عمـــوما شر البـــلاء ، بسبب الخـــلافات العنصرية الشعوبية .

فكان أول المتاعب المعارك بين المنصور وبين العلويين بقيادة محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على ابن أبى طالب ، وقد قتل فيها كثيرون .

وثانى تصـــدع للأمة نشـــأ عن المعارك التى دارت بين الخليفة الهادى وبين الحسين بن على بن الحسن بن

الحسن بن على بن أبى طالب ، وحوله آل أبى طالب وكثير غيرهم ، وقتل الحسن وكثيرون معه فى موقعه « وج » بين مكة والمدينة .

وثالث المتاعب : فى خلافة المستعين بن أحمــد بن المعتصم ، أن تغلب اسماعيل بن يوسف من أولاد على ابن أبى طالب على مكة فهرب عاملها من قبل الخليفة ، فاستباح اســماعيل مكة وأموال أغنيائها . ثم خرج الى المدينة فتوارى عنــه عاملها ، ثم رجع الى مكة فحصرها حتى مات كثيرون من أهلها جوعا . ثم ســار الى جدة فحبس عن الناس الطعام ، وأخذ الأموال التى للتجــار وأصحاب المراكب ، ثم وافى الموقف بعرفة فى سنة ٢٥١ هـ فأفسد فيه كثيرا .

ولم يكن أسوأ حالا منه الا القرامطة عندما زحفوا الى مكة فاستولوا عليها ونكلوا بالحجاج سنة ٣١٢ هـ . فقتلوا فى مكة وضواحيها ثلاثة آلاف ، غير الذين ماتوا جوعا ، ونهبوا الملايين من الأموال(٣١) .

---

(٣١) ظهر الاسلام لاحمد امين جـ ١ ص ٣١٠-٣١٢

كل هذه الأحداث وأمثالها ، أضعفت شـأن جزيرة العرب ، وجعلتها فى شبه عزلة ، وأخرتها ماديا وعلميا .

يقول الدكتور جواد على[٣٢] :

ان الحروب والفتن التى وقعت فى اليمن وفى باقى العربية الجنوبية والعروض فى أيام الأمويين والعباسيين وفى الأيام التى تلتهم ، فنشرت فى تلك الديار الخراب ، ثم اهمال الأمويين ومن جاء بعدهم من خلفاء وملوك وحكام شأن جزيرة العرب ، لفقرها وعدم وجود موارد غنية فيها ، وانتقال أصحابها أصحاب الجاه والنفوذ الى البلاد الغنية ، فلم يبق من يدافع عنها ويتحدث بلسانها باعتبارها مهد العرب الأول ومهد الاسلام ، فتقوى الخراب بذلك على العمار ، وأخذ يبتلع ما يجده أمامه من مستوطنات حتى وصلت الى ما وصلت اليه اليوم .

والدليل على ذلك ورود أسماء مواضع عديدة فى اليمامة وفى الحجاز وفى نجد واليمن ، وفى كل أنحاء

(٣٢) المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام جـ١ ص٢٥١

جزيرة العرب الأخرى فى الموارد العربية الاسلامية ، كانت مآهــولة مزروعة فى صــدر الاســلام ، خربت وهجرت وصارت أثرا ، وقد ذهب عن آكثرها حتى الاسم . فلما كتب عنها الجغرافيون لم يجدوا من عمراتها شــيئا ، بل نجد فى كتب الجغرافيين أسماء مواضع نزلوا بها وأقاموا فيها ، وكانت معمورة مسكونة . أما اليوم فلم يبق من آكثرها شيء .

* * *

خاتمـــة

هذه الدراســة الموجزة تضع النقاط على الحروف للدروس المتكررة عن سـقوط دول وأمم كان لها شأن واشتركت جميعها فى أهم سـبب من أسـباب سـقوط الأمم ، وهو الفرقة الناشـئة عن مطامع غادرة تسـتنفر الشـعوب للحروب تحت راية حكام طمـوحين غادرين جبارين ليست لهم قلوب رحيمة بشعوبها .

● فهـا نحن نرى فرعـون مصر يعلن أنه سـيمد سلطانه فى الشـمال على مملكة الهكسوس فى سيناء ظنا منـه ـ كما هـو الشـأن فى سياسـات دول معاصرة محكومة اسـتبداديا ـ أنه باعلان الحرب على الآخرين يشغل الرعية عن صراعاتها الداخلية ، ومآسـيها المريرة ، وبشـعار « لا صوت يعلو صوت المعركة » ينقطع الهمس أو التذمر من صفوف المعاناة .

تلك سنة من سـنن الجبـارين قديما نلمسـها فى عصرنا .. وهكذا جر نداء فرعون قديما ، وزعمـه أنه سيرمى الهكسوس فى البحر ـ على مصر ويلات ـ فقد

تجهز الهكسوس بسرعة ، وهجموا على الشعب المهلهل المنهوك سنة ٢٣٣٣ ق ٠ م ٠ فاستولوا عليه ٠ وكونوا لهم حكما غريبا هو حكم الأسرات الرابعة عشرة ، والخامسة عشرة ، والسادسة عشرة ، والسابعة عشرة بين أسر التاريخ المصرى القديم ٠

واذا عبرنا مصر الى جزيرة العرب نجد مآسى البلاد، ولدتها خلافات العباد ٠

* * *

● **ففى مملكة سبأ وذو ريدان (١١٥ ق٠م) :**

كان يمتد ملك سبأ الى أراضى الحضارمة واليمن الجنوبى فتبسط سبأ يدها على جميعها وفجأة اندلعت الحرب بين أجزاء البلد العربى الواحد من أجل المطامع التوسعية المسيطرة على زعماء البلاد ، فكان الخاسر الوحيد هو الشعب ، مما أضعف المملكة وأطمع فيها الحبشة (الأثيوبيين) اذ دخلوا كطرف ثالث ، أشبه بما تفعله أمريكا اليوم ، أو أمريكا وروسيا معا فى الشرق الأوسط ، والشرق الأقصى ٠

وهكـــذا كان الصراع على تركة « قتبــان » بين « شـــعرم أوتر » وبين « الشرح يحضب الحضرمى » ، وانقسمت حمير حينذاك فأصبح لكل فريق منهما أنصار ، حطم بعضهم بعضا كمــا تفعل ســوريا بأبنــاء لبنــان وفلسطين ، وكما يفعل العراق مع ايران ، وكانت النتيجة بعد ضعف «شعرم أوتر» وكذا «الشرح يحضب» ، أن أغار الأحباش على أراضيهما •• وما درى الزعيمان العربيان المثل العربى الحكيم : « أكلت يوم أكل الثور الأبيض »•

وحدث ما هو متوقع فى مثـــل هـــذا الوضـــع أن قامت ثورات داخلية ضـــد كل من الزعيمين اللذين أدارا رحى الحرب على رءوس فلذات أكباد الشعب ، وتضعضع اقتصـــاد البلاد بسبب استمرار الحروب ، وهرب الناس من بلادهم ، وبخاصـــــة أصـــحاب القلوب الحـــرة ، والكفاءات العالية الممتازة •

***

● تأثر بقية العرب المجاورين بالحرب :

وهكـــذا أغرى الاســـتعمار الحبشى لأراضى اليمن المنهوك قادة المحتلين الى التوســـع نحو الشـــمال وغزوا

الكعبة ، فزحف اليها أبرهة الأشرم ، وكانت المقاومة السلبية التى قادها عبد المطلب ، وعلم الله ما فى قلبه من صدق الحب لأعز آثار ابراهيم عليه السلام فأرسل على الغزاة طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل .

* * *

● **الروح الانهزامية والاستئثار بالسلطة :**

والصراع الساخن القائم على الأنانية وعلى الرغبة فى الاستئثار بالسلطة جعل « شمر ذى ريدان » يرسل الى الحبش لينصروا كتلته المتحالفة من عشائر حمير وعشائر سهرة على جيش « سبأ وذى ريدان » وهكذا حب السلطة قد يبعث بصاحبها الى خيانة بلده والاستنصار على بنى عمومته واخوانه بالأجنبى ، وما أسوأ ثمرات التدخل الأجنبى .

* * *

● **سد مارب :**

لقد كان ذا فاعلية فى تعمير بلاد اليمن ، وقد خرب — لابسبب الأساطير المروية — وانما لعوامل سياسية

واقتصادية ذكرناها وقدمنا الدليل على وجهة النظر التى رجحناها ، وكان فى خرابه خراب لليمن وتعمير بشرى فى الشمال بأمثال الأوس والخزرج الذين دمرهم أيضا الخلاف الطبقى .

* * *

● فى العصر الأموى :

كانت فتوح بنى أمية ابان القدرة على جمع الكلمة ، والالتفاف حول نار الخلاف التى أشعلها عبد الله بن سبأ اليهودى ، فكان لهم أمجاد وفتوح حتى نهاية عصر هشام بن عبد الملك بالرغم من وجود عوائق وخلافات داخلية ازدادت شراسة بعد هشام بن عبد الملك وخلفائه حتى سقطت دولة بنى أمية فى المشرق لأسباب وضحناها وذكرنا عقبها صورة للخلافات الداخلية وتأثيرها على مكة فى العصرين الأموى والعباسى .

ولعل فى كل ذلك عبرة لأولى الألباب ، ومن يهده الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ؟

* * *

محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

***

رقم الايداع بدار الكتب ٨٩/٣٩٩١
الترقيم الدولى ٠ — ١٨٢ — ٣٠٧ — ٩٧٧

دار التوفيق النموذجية
للطباعة والجمع الآلى
الأزهر/٣ حوضان الموصلي بجوار جامع العطار
ت : ٩٢٥٣٠٤